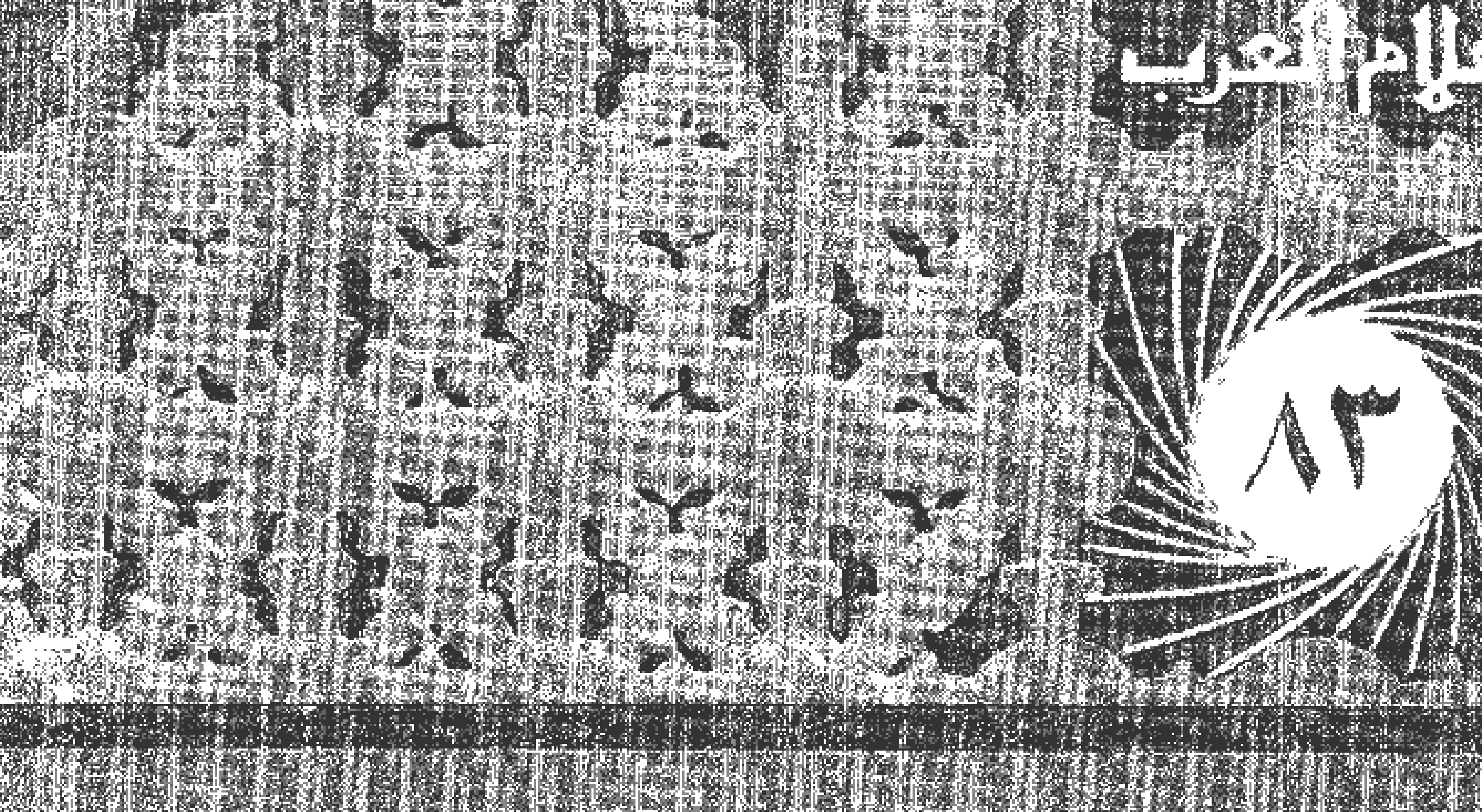


ابن الأثير الجزري

المؤرخ

دار الكاتب العربي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أعلام العرب

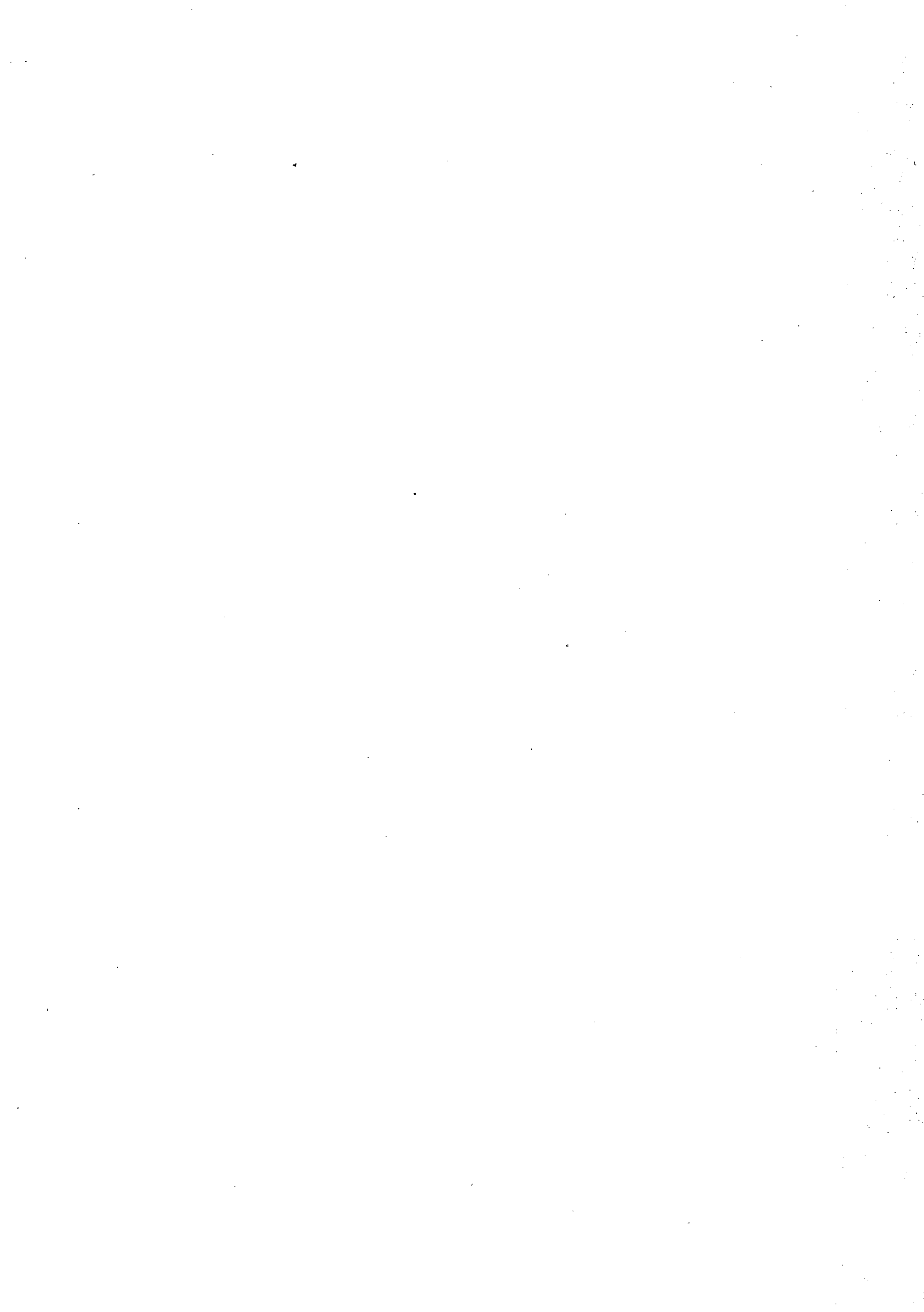
٨٣

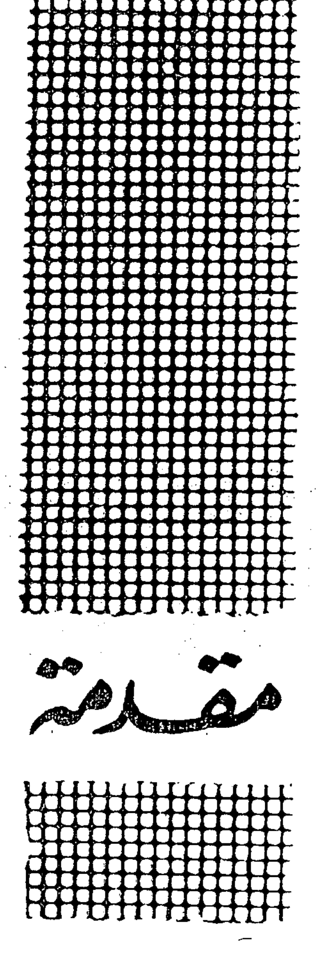
ابن الأثير الجزري

المـــؤرخ

تأليف
الدكتور عبد القادر أحمد طليمات

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر - ١٩٦٩





مقدمة

فى الثلث الأول من القرن الســـابع الهجرى (الثــالث عشر الميلادى) توفى مؤرخ اسلامى عالمى ، يعد من أشهر المؤرخين المسلمين ، هو ابن الأثير الجزرى ، صاحب التاريخ المشـــــهور « الكامل فى التاريخ » ، ففقد العالم الاسلامى بموته ، أشهر من ظهر من المؤرخين المسلمين فى القرون السبعة الهجرية الأولى ، بعد ابن جرير الطبرى المتوفى فى العشر الأول من القرن الرابع ٠

وقد ظل ابن الأثير طيلة القرون التى تلت وفاته حتى اليوم ، أى على مدى سبعة قرون ونصف قرن ـ ملء ســمع وبصر المؤرخين والباحثين ، وسيظل كذلك ما أثار المؤرخون المسلمون اهتمام الباحثين فى الشرق والغرب ٠

وكان كتابه « الكامل فى التاريخ » ، المصدر الأساسى للمؤرخين القدامى اللاحقين له ، ومازال مصدرا رئيسيا للباحثين المحدثين ـ فى

الشرق والغرب ـ وسيظل كذلك ، ما دام هناك باحثون ودارســـون في التاريخ الاسلامى .

وعظمة ابن الأثير كمؤرخ ، ترجع الى أنه المؤرخ الثانى الذى اهتم بتاريخ العالم الاسلامى بأقاليمه ومناطقه المختلفة ، أما المؤرخ الأول ، فهو ابن جرير الطبرى ، الذى أرخ العالم الاسلامى حتى الســنة الثانية من القرن الرابع الهجرى ، أى الى ما قبل وفاته بثمانيـــة أعوام .

وعدا هذه الميزة ، فان ابن الأثير يمتاز بميزة لا نجدها الا فى قلة قليلة من المؤرخين الأصلاء السابقين عليه واللاحقين له ، وهى أن ابن الأثير لم يكن مجرد مسجل أخبار وأحـــداث ، وانما كان ناقدا ممتازا ، نقد أصحاب مصادره ، وناقش كثيرا من أخبارهم ، ونقد الشخصيات البارزة التى وردت فى الأخبار ، كذلك انفعل مـع الأحداث الخطيرة ، وأبرز انفعالاته بالنقـد والتعليق والابتهالات والدعاء ، وقد أثبتنا كل هذا فى مواضعه من الكتاب .

وأما كتاب « الكامل فى التاريخ » ، فان له أهمية خاصة ، ذلك بأنه الكتاب الوحيد الذى دون أخبار العالم الاسلامى وأحداثه ـ مشرقه ومغربه وما بينهما ـ على مدى سبعة قرون وربع قرن ، متصـــلة مسلسلة ، بالاضافة الى استكمال ما نقص عند الطبرى من الأخبار حتى سنة ٣٠٢ ، وهى السنة التى انتهى بها كتابه . فبعد الطبرى ، لم يظهر كتاب يغطى أخبار حقبة طولها أكثر من ثلاثة قرون ، أى ما بين وفاة الطبرى وظهور كتاب « الكامل » فى سنة ٦٣٠ .

وأهمية أخرى لكتاب « الكامل » ، وهى أنه الكتاب الوحيد حتى الثلث الأول من القرن السابع ، الذى تضمن أخبار الحروب الصليبية مجموعة متصلة منذ دخولهم الشام فى سنة ٤٩١ هـ حتي سنة ٦٢٨ ، أى الى ما قبل وفاة ابن الأثير بسنتين . كذلك تضمن الكتاب ، أخبار

الزحف التترى على المشرق الاسلامى منذ بدايته فى سنة ٦١٦ حتى سنة ٦٢٨ ، وهى السنة التى ينتهى بهـــا الكتاب ، ويعتبر تاريخ ابن الأثير للزحف ، أوسع التواريخ التى دونت أخباره •

* * *

وقد شغل الموضوع خمسة فصول : الأول منهـــا ، عن عصر ابن الأثير وأحداثه فى العالم الاسلامى ، ما بعد ابن الأثير عنها ، وما قرب منها •

وتضمن الفصل الثانى : نبذة عن أسرة ابن الأثير ، ثم ترجمة له ، مولده ، ونشأته ، وتعليمه ، ومكانته العلميـــة والاجتماعية ، وأخلاقه ، ووفاته .

وتضمن الفصل الثالث : التعريف بابن الأثير كمؤرخ ، فتكلمت عن تخصصه في التاريخ وأهمية هـــذا التخصص ، وعن مفهومه للتاريخ ، وتفكيره التاريخى وأثره فى معالجة الأحداث ، وعنه كمؤرخ ناقد ، وحيدته فى التأريخ ، وخصائصه •

أما الفصل الرابع ، فقد تضمن الحديث عن مؤلفاته والتعريف بها ، فعرفت بكل كتاب على حدة : موضوع الكتاب ، ومصادره ، ومنهجه فى التأليف وغير ذلك •

أما الفصل الخامس ــ وهو الفصل الأخير ــ فقد تضمن الحديث عن تأريخ ابن الأثير لأخطر حادثين حدثا فى عصره ــ وكان قريبـــا منهما ــ وهما : الحروب الصليبية ، والغزو التترى .

وقد هوجم ابن الأثير من بعض الدارسين المحدثين ، مهـــاجمة عنيفة ، بسبب بعض أخبار انفرد بها ــ من بين المؤرخين المعاصرين له ــ عن صلاح الدين الأيوبى ، ولنقده بعض تصرفاته الحربيـــة ، فناقشنا ــ بايجاز ــ فى نهاية الفصل ، أهم ما جاء فى الهجوم .

أما الهجوم فى مجموعه ومناقشتنا المفصلة له ، فموضعه الطبعة الخاصة لدراستنا المفصلة لكتاب « الـــكامل » التى سوف تظهر قريبـــا ان شاء الله ٠

هذا ، وأرجو أن أكون قد قدمت ابن الأثير ، المؤرخ المحدث ، لقراء العربية تقديما يرضيهم ، بالقدر الذى سمح به نطاق الكتاب ٠ والحمد لله رب العالمين ؟

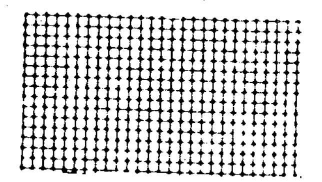
عبد القادر أحمد طليمات

مصر الجديدة : رجب ١٣٨٧ هـ / أكتوبر ١٩٦٧ م

الفصل الأول

عصر ابن الأثير

٥٥٥-٦٣٠هـ = ١١٦٠ = ١٢٣٢م



عاصر ابن الأثير النصف الثانى من القرن السادس ونحو الثلث الأول من القرن السابع •

وظاهرة هذه الفترة التى تمتد ثلاثة أرباع القرن ، هى امتلاؤها بالأحداث الخطيرة والمثيرة فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه وما بين مشرقه ومغربه ، فشاهد أحداث المنطقة التى عاش فيها ـ الموصل والجزيرة ـ وسمع أخبار المناطق القريبة منــــه كالعراق وما يقع شرقه ، والشام ومصر ، كما سمع أخبار المناطق البعيدة عنه كافريقية والأندلس من الواردين على الموصل من هذه المناطق •

ففى المشرق الاسلامى ، كانت الصراعات العنيفة على قدم وساق ، بين الشعوب المختلفة التى تشغل أقاليمه ، كالسلاجقة ، والخوارزمية ، والغور ، والخطا ، والغز ، والدز ، والكرج • وقد بدأت هذه الصراعات

قبل مولد ابن الأثير بسنوات طويلة ، ثم استمرت حتى عصره • وكان محور هذه الأحداث ، هم الخوارزميون الذين قضوا على القوى الكبيرة واحدة اثر أخرى ، كذلك قضوا على الامارات الصغرى ، حتى اذا كانت أيام علاء الدين خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧) كانت الأقاليم الواقعة شرق العراق : فارس وخراسان وما وراء النهر وغيرها ، خالصة له تقريبا ، وأصبح هو المسيطر وحده على هذه الأقاليم ، ولكنه — فى الوقت نفسه — كان محاطا بأعداء كثيرين ، هم الملوك والأمراء الذين سلبهم ممالكهم واماراتهم ، أما نتيجة تصرف علاء الدين هذا فقد ظهر أثرها السيىء عندما زحف التتر من حدود بلادهم ، الصين ، الى المشرق بجحافلهم الجرارة سنة ٦١٦ ، فلم يستطع وقف زحفهم ، وانما أخذ يفر منهم من اقليم الى اقليم ومن مدينة الى أخرى ، حتى انتهى فى سنة ٦١٧ الى جزيرة له فى بحر قزوين حيث مات فيها • ولما خلفه ابنه جلال الدين منكبرتى ، لم يكن أسعد حظا من أبيه ، وان كان قد جاهد مدة أطول من مدة أبيه ، ولكن جهاده انتهى بالفشل ، فقد عجز عن رد التتر على أعقابهم أو الحد من تقدمهم ، بل كان ينهزم منهم ويفر ، حتى وصلوا الى مشارف الموصل ، فاختفى عن الميدان وتوفى فى منفاه فى سنة ٦٢٨ ، ولم يمتد بابن الأثير العمر حتى يشاهد أو يسمع بسقوط بغداد فى أيدى التتر سنة ٦٥٦ هـ فقد توفى سنة ٦٣٠ •

أما أحداث القسم الغربى من العالم الاسلامى — افريقية والأندلس — فلم تكن أقل اثارة وخطورة عن أحداث المشرق ، فقد كانت افريقية مسرحا للقتال بين المسلمين وبعضهم بعضا ، فقد كان هناك : المرابطون ، والموحدون ، وبنو مرين ، وبنو حفص ، يدور القتال فيما بينهم على الملك والتسلط ، فضلا عن اغارات المسيحيين المتتالية على الساحل الافريقى • كذلك الأندلس ، كانت تمزقه المنافسات والأطماع بين المسلمين أنفسهم ، فضلا عن حركة الاسترداد

التى قام بها الأسبان ، والتى بدأت من عهد سابق لعصر ابن الأثير ، حتى انه لم يبق فى يد المسلمين - فى عصر ابن الأثير - من مدن الأندلس الهامة الا القليل .

ولم يكن ما بين المشرق والمغرب - الشام ومصر - أحسن حالا منهما ، فقد كان الصراع المرير بين المسلمين وبين الصليبيين على أشده ، وقد ولد ابن الأثير بعد دخول الصليبيين الشام واستقرارهم فيها بخمسة وستين عاما ، ولكنه أخذ يسمع عنهم فى صغره ، ثم أخذ يعرف الكثير عنهم ويتفهم وضعهم فى الشام كلما تقدم فى العمر ، حتى جاء الوقت الذى خرج فيه الى ميادين القتال فى الشام يشاهد بنفسه المعارك التى تدور بين صلاح الدين الأيوبى وبين الصليبيين ، وبينهم وبين خلفائه من الأيوبيين ، وقد توفى ابن الأثير ومازال الصليبيون يحتلون جزءا كبيرا من الشام .

ومن الأحداث الهامة والمثيرة التى شاهدها ابن الأثير وكان لصيقا بها ، سقوط الدولة الزنكية - التى عاش هو وأسرته تحت حكمها ورعايتها - كدولة حاكمة لمنطقة واسعة تضم الموصل ، وجزءا كبيرا من الجزيرة والشام ، ومصر كلها ، وكان سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبى الذى أخذ يكون دولته بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، فشاهد ابن الأثير مشاهدة عيان الحروب التى دارت بين صلاح الدين وخلفاء نور الدين ، والتى انتهت باستيلاء صلاح الدين على أقاليم الدولة كلها ما عدا الموصل التى خضع صاحبها له ، كذلك شاهد عن قرب ، الصراع بين بقايا الزنكيين وبين الأيوبيين خلفاء صلاح الدين فى محاولاتهم لاسترداد ما أخذه صلاح الدين من بلادهم ، حتى اضمحل أمر الزنكيين فى الموصل فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) بموت ملكها القاهر مسعود واستخلاف ابنه الطفل ، ووضع الموصل تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ الذى استبد بالأمر وأصبح الحاكم الفعلى لها ، فبرز له عماد الدين زنكى - أخو الملك

القاهر – بتأييد من حميه (والد زوجته) مظفر الدين كوكبورى أمير اربل ، يناوئه على ملك الموصل ، لأنه كان يرى أنه أحق من ابن أخيه الملك القاهر بالملك لتقدمه فى السن ، وأحق أيضا من بدر الدين الذى أسقط اسم الزنكيين من الموصل نهائيا حوالى ومن ثم قامت الحروب بينه وبين بدر الدين التى انتهت بانتصار بدر الدين الذى أسقط اسم الزنكيين من الموصل نهائيا حوالى سنة ٦٣١ .

كذلك عاصر ابن الأثير حروب المنافسة الأسرية بين الأيوبيين وبعضهم بعضا بعد وفاة صلاح الدين على النفوذ والتوسع الاقليمى ، ذلك أن صلاح الدين كان ينيب أبناءه واخوته فى حكم المدن الهامة فى الشام والجزيرة ومصر ، فلما توفى استقل كل نائب بما فى يده واتخذ لنفسه لقب الملك ، ثم طمع كل نائب بما فى يد قريبه ليوسع دائرة ملكه ، فكان القتال يدور بينهم باستمرار ، فى الوقت الذى كان الصليبيون مطلقى الأيدى فى الشام يفعلون ما يريدون .

وقد أثارت هذه الأحداث ابن الأثير اثارة بالغة ، فانفعل انفعالات ساخطة ظهرت فى نقده المر للملوك المسلمين وتعليقاته اللاذعة على تصرفاتهم .

واذا كنا قد أوجزنا فى وصف عصر ابن الأثير ، فاننا فصلناه بشىء من التوسع فى الفصل الخامس من الكتاب فى حديثنا عن تأريخ ابن الأثير لأحداث عصره .

وقد أثارت أحداث العصر اهتمام نخبة من المفكرين المعاصرين ، فعكفوا على تدوين أخبارها ، سواء فى تواريخ عامة أو تواريخ خاصة ، فمن مؤرخى الحروب الصليبية :

ابن القلانسى (حمزة بن أبى يعلى الأسدى) المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠) وكتابه « ذيل تاريخ دمشق » ، وقد دون ابن القلانسى

أخبار الحروب الصليبية منذ بدايتها فى سنة ٤٩١ هـ حتى السنة التى توفى فيها .

- العماد الكاتب (عماد الدين محمد بن حامد الأصفهانى) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) وكتابه « البرق الشامى » وقد دون فيه التاريخ السياسى لفترة طويلة من حكم نور الدين محمود ، والتاريخ السياسى لصلاح الدين الأيوبى حتى وفاته ، وأفاض فى أخبار حروبهما مع الصليبيين منذ سنة ٥٥٢ حتى سنة ٥٨٩ ، وهى السنة التى توفى فيها صلاح الدين . ثم أفرد حروب صلاح الدين مع الصليبيين منذ سنة ٥٨٣ - وهى السنة التى فتح فيها صلاح الدين بيت المقدس واسترده من الصليبيين - حتى وفاته « كتاب خاص سماه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » .

- ابن أبى طى الحلبى (يحيى بن حميدة بن ظافر) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) وكتابه « كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين » ضمنه سيرة صلاح الدين الخاصة والعامة ، وحروبه مع الصليبيين حتى وفاته .

- ابن شداد (يوسف بن رافع بن تميم) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) وكتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو صلاح الدين » ضمنه سيرة صلاح الدين الخاصة والعامة ، وحروبه مع الصليبيين حتى وفاته .

- سبط ابن الجوزى (يوسف بن قزاوغلى) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وكتابه « مرآة الزمان » ، وهو كتاب فى التاريخ العام ، جمع فيه أخبار الحروب الصليبية منذ بدايتها حتى السنة التى توفى فيها .

أما مؤرخو الغزو التترى من المعاصرين :

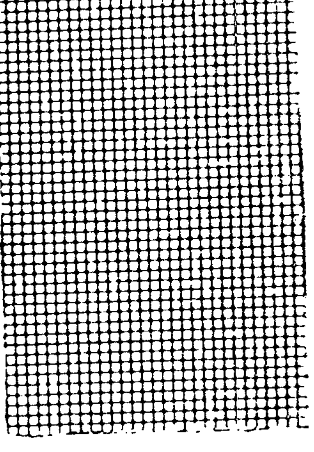
ـ الزيدرى (نور الدين محمد الزيدرى الخراسانى) (وتاريخ وفاته غير معروف ، الا أنه كان معاصرا للنسوى المتوفى سنة ٦٤٧) وكتابه « نفثة المصدور فى فتور زمان الصدور وزمان صدور الفتور » ، وضـــمنه أخبار الغزو عن مشاهده ، فقد كان منشىء السلطان جلال الدين منكبرتى .

ـ النسوى (محمد بن عبد الواحد) المتوفى ســـنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) وكتابه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » ، وقد ضمنه أخبار الغزو عن مشاهده أيضا ، فقد كان منشىء الســـلطان جلال الدين ، كالزيدرى .

وأما مؤرخو الدولتين الزنكية والأيوبية :

ـ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) وكتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، وهما الدولة الزنكية والأيوبية ، وقد ضمن المؤرخ التاريخ السياسى للزنكيين وحروبهم مع الصليبيين فى عهدى عماد الدين ونور الدين ، وفى عهد خلفاء نور الدين حتى عصر صلاح الدين ، وضمن تأريخه للدولة الأيوبية ، تاريخ صلاح الدين السياسى وحروبه مع الصليبيين ، مع الزنكيين خلفاء نور الدين محمود للاستيلاء على دولتهم منهم .

ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) وكتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، والكتاب ، وان كان يحمل عنوانا عن الأيوبيين ، الا أن المؤلف بدأ كتابه بالدولة الزنكية ، منذ عهد مؤسسها عماد الدين زنكى حتى نهايتها ، فذكر أخبارها الســـياسية وحروبها مع الصليبيين ، وحروبها مـــع صلاح الدين ، ثم ثنى بدولة الأيوبيين وظهورها على يد صلاح الدين ، فدون أخبارهم السياسية وحروبهم مع الصليبيين حتى نهاية دولتهم سنة ٦٤٨ هـ .



الفصل الثانى

أسرة ابن الأثير - ترجمته

(١) أسرة ابن الأثير :

ينتمى ابن الأثير الى أسرة اجتمعت لها خصائص الأسر العريقة فى الموصل ، فهى أسرة عربية الأصل من بنى شيبان أحد بطون بنى بكر بن وائل العربية ، وهى أيضا أسرة غنية تمتلك عقارات واقطاعات ، وشغل أفرادها مناصب حكومية رفيعة ، ولها فى البلاط الموصلى مكانة ممتازة ، ثم هى كذلك أسرة علمية نبغ أبناؤها الثلاثة ، فكانوا من العلماء البارزين فى مختلف العلوم ، وكانت لهم شهرة علمية ذائعة فى عصرهم وامتدت الى ما بعد عصرهم ، الى اليوم .

وقد شغل والد ابن الأثير وظائفه الحكومية فى جزيرة ابن عمر التابعة للموصل فكان رئيس ديوانها ونائب وزير الموصل فيها ، ويبدو أن مكانة والده كانت كبيرة عند وزير الموصل ، بحيث كان الوزير ينزل فى داره عند زيارته للجزيرة .

والأخبار عن مدى ثقافة والد ابن الأثير معدومة ، ولكن من

الراجح أن يكون قد حصل من العلم والثقافة ما يحصله أمثاله ممن يتأهلون لشغل المناصب الحكومية . وخاصة وظيفة نائب الوزير ورئيس ديوان مدينة مثل جزيرة ابن عمر ، أو لحمل لقب هام كاللقب الذى يحمله وهو « أثير الدين » .

وكان والد ابن الأثير على جانب كبير من الثراء ، حيث يذكر المؤرخ ، أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمة ـ احدى قرى جزيرة ابن عمر ـ كذلك كان يملك قرية جنوب الموصل يقال لها « قصر حرب » ويقول ابن الأثير ، انه جمع أكثر مادة كتابه « الكامل فى التاريخ » فى دار لهم بهذه القرية . كذلك كان والده يشتغل بالتجارة الى جانب وظيفته ، حيث يذكر خبر استيلاء الصليبيين ـ فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) على مراكب للمسلمين كانت قادمة من مصر الى الشام ، وكان لوالده فيها تجارة ، كذلك يذكر فى أخبار سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) أن الصليبيين استولوا على قافلة برية وأما مؤرخنا ، وهو الأوسط هو عز الدين وقد ولد فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

ولمؤرخنا أخوان هو أوسطهما ، فأخوه الأكبر هو مجد الدين أبو السعادات ، وكان مولده فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) وأما أخوه الأصغر هو ضياء الدين نصر الله وولد فى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) وأما مؤخنا ، وهو الأوسط ، هو عز الدين على وقد ولد فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وقد اتجه كل من مجد الدين وضياء الدين وجهة أبيهما فى الالتحاق بالوظائف الحكومية ، وأما مؤرخنا فلم يشاركهما هذا الاتجاه . فأما مجد الدين فقد شغل عدة وظائف ، منها النظر على خزانة سيف الدين غازى صاحب الموصل ، ثم تولى ديوان جزيرة ابن عمر ، ثم عاد الى الموصل فكان نائبا للوزير جلال الدين على ابن منصور الأصفهانى على ديوانها ، ثم عمل فيها كاتب الانشاء

لبعض ملوكها ، وظل فى وظيفته هذه حتى أقعده المرض ، وقد أراد نور الدين أرسلان شاه ملك الموصل أن يعينه وزيرا له ولكنه اعتذر لمرضه ، ثم توفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) .

أما ضياء الدين فيبدو أنه لم يلتحق بحكومة الموصل فى أول أمره ، وانما التحق بخدمة الأيوبيين ، فكان وزيرا للملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ولما توفى صلاح الدين فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) استقل الأفضل بدمشق وضياء الدين وزيره ، فأساء ضياء الدين السيرة والحكم فيها حتى هدد بالقتل ، ففر منها الى مصر متخفيا فى صندوق مقفل وذلك لما انتقل الأفضل الى مصر ، ولما استولى الملك العادل الأيوبى على مصر من الملك الأفضل ـ وكان العادل ساخطا على ضياء الدين لسوء سيرته ـ خرج ضياء الدين من مصر متخفيا أيضا ، ولازم الملك الأفضل بسميساط ، فظل معه مدة ، ثم انفصل عنه لمغاضبة حدثت بينهما ، وعاد الى الموصل ، ولكن لم تطب له الاقامة بها ، فرحل عنها الى «اربل» ولكنه سرعان ما بارحها لأنه لم يجد هواه فيها ، فسار الى مدينة سنجار ولكنه لم يلبث أن عاد الى الموصل واستقر بها نهائيا ، فالتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بوظيفة كاتب الانشاء وذلك فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . ولما مات ناصر الدين التحق بخدمة بدر الدين لؤلؤ الوصى على عرش الموصل بوظيفة كاتب الانشاء أيضا وذلك فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) فسيره لؤلؤ رسولا منه الى بغداد ، فمات بها فى نفس السنة .

أما الاتجاه العلمى للأخوة الثلاثة ، فقد اتجه كل منهم اتجاها خاصا فى تخصصه العلمى ، حيث اختار مجد الدين العلوم الدينية واللغوية ، واختار عز الدين الحديث والتاريخ ، واختار ضياء الدين العلوم الأدبية ، فاشتهر كل منهم فى ميدانه شهرة كبيرة فى عصرهم . وامتدت الى ما بعد عصرهم ... الى اليوم .

وقد اشتهر مجد الدين كمحدث ومفسر ولغوى ، وله مصنفات فى كل علم من هذه العلوم ، منها : « كتاب البديع فى النحو » و « كتاب الانصاف فى تفسير القرآن » و « كتاب غريب الحديث » و « كتاب جامع الأصول فى حديث الرسول » وغيرها .

وأما ضياء الدين ، فقد اكتسب شهرته كأديب ، وله من المصنفات الأدبية : « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » و « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » و « المعالى المخترعة فى صناعة الانشا » .

وأما عز الدين المؤرخ ، فله منا حديث طويل ، فهو موضوع هذا الكتاب .

* * *

ويبدو أن مكانة أسرة ابن الأثير الاجتماعية فى الموصل بعد انتقالهم اليها من الجزيرة ، لم تكن تقل عن مثيلاتها من الاسر الموصلية الكبيرة ، كأسرة بنى الشهرزورى ، وبنى بلده جى ، وبنى منعة ، وبنى المهاجر وغيرها ، وذلك نظرا لمكانة والد ابن الأثير وأخويه كموظفين كبار فى حكومة الموصل وعلاقتهم بملوكها ، وقد أبرز ابن الأثير مكانة أسرته لدى ملوك الموصل وبخاصة فى عهد الملك نور الدين أرسلان شاه ، وذلك فى مقدمة كتابه « التاريخ الباهر » ـ وهو فى تاريخ ملوك الموصل ـ فقال فى معرض حديثه عن سبب تأليفه الكتاب : « ... أما بعد ، والذى غمرنا من أنعام هذه الدولة العزيزة القاهرة ، والأيام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من احسانها ، وأنالتنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبره ، وطار ذكره فى الآفاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسديها ، ونعمة توليها ، ودرجة فى العلا ترفع بضبعنا اليها ، ومرتبة فى الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين » ، ثم ذكر مكانة أسرته لدى الملك نور الدين أرسلان شاه ـ والد الملك

القاهر الذى ألف ابن الأثير من أجله الكتاب فيقول : « وكان أكثر الموالى السعداء – قدس الله أرواحهم – انعاما علينا ، واحسانا الينا ، المولى السعيد ، الملك العادل نور الدين أرسلان شاه – رضى الله عنه وأرضاه ، وأكرم فى الآخرة نزله ومثواه – فانه طالما أنعم علينا وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا واصطفانا ، والى أعلى مراتب الكرامة أعلانا ، مازال يوالينا الجميل ، ويولينا الجليل ، ويقربنا الى حضرته العلية ، ويدنينا من سدته السنية ، وبأسراره يخصنا ، ولمشورته يستخلصنا ... » . ويبدو أن والد ابن الأثير – بعد انتقاله من جزيرة ابن عمر الى الموصل – جعل بيته منتدى يجتمع فيه كبار رجالات المدينة من أصحابه من علماء وأدباء وموظفين ، فكانت تدور فى هذا المنتدى أحاديث منوعة ، وكان والد ابن الأثير يحدث ضيوفه عن ذكرياته عن ملوك الموصل الأوائل وسيرهم وأعمالهم الخاصة والعامة ، وكان مؤرخنا يحضر هذه الأحاديث ويدونها ، فهو يصرح فى مقدمة كتابه « التاريخ الباهر » أنه نقل أكثر مادة الكتاب عن والده الذى كان راوية حسنات الزنكيين و « عين الخبر بحركاتهم وسكناتهم » وقد ذكر والده كمصدر له عن الزنكيين ولأخبار أخرى أكثر من مرة فى كتابيه « الباهر » و « الكامل » . ففى خبر ذكره ابن الأثير فى « الكامل » عن الملك قطب الدين مودود نقله عن والده ، يفهم منه أن والده كان يوجه الحديث الى جماعة من الناس – وان كان ابن الأثير يورده وكأن الخطاب موجه اليه بالذات ، حيث يقول : « حدثنى والدى – رحمه الله – قال : كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم ... » ويورد نفس الخبر فى « الباهر » ويبدأه بقوله : « فحكى لى والدى ، قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح الى الجزيرة وأنا أتولى ديوانها على ما شوهد ... » فعبارة « كما علمتم » أو « على ما شوهد » يفهم منها أن الوالد كان يتحدث الى جماعة من الناس وليس الى ابنه وحده ، ولما توفى والد ابن الأثير ، حل محله فى رياسة الأسرة مجد الدين باعتباره

الأخ الأكبر وباعتبار مكانته ، واستمر البيت «يغشاه الأكابر والعلماء» ـ كما يقول ابن خلكان ـ ولما توفى مجد الدين ، رأس الأسرة عز الدين المؤرخ ، فكان البيت فى أيامه « مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين اليها » فلما توفى عمل أخوه ضياء الدين على استمرار مكانة الأسرة الرفيعة حتى وفاته سنة ٦٣٧ هـ ٠

والواقع أن الأخوة ، قد صنعوا لأسرتهم شهرة واسعة ومجدا كبيرا ٠ يقول ابن خلكان فى ترجمته لضياء الدين ـ أخى المؤرخ ـ « وقد تقدم ذكر أخويه مجد الدين أبى السعادات المبارك وأبى الحسن على الملقب عز الدين ، وكان الأخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء ، لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله » ٠ ويذكر القزوينى (توفى سنة ٦٨٢ هـ) فى كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » ، فى تعريفه بجزيرة ابن عمر التى ولد بها المؤرخ وأخواه ، فيقول : « وينسب اليها بنو الأثير الجزريون ، كانوا ثلاثة اخوة فضلاء ، رأيت منهم الضياء (يقصد ضياء الدين) كان شيخا حسن الصورة ، فاضلا ، حلو الحديث ، كريم الطبع ، له تصانيف كثيرة » ٠

(ب) ترجمة ابن الأثير :

وأما مؤرخنا فهو عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم عبد الواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجزرى ٠

ويلاحظ الباحث فى ترجمة ابن الأثير قلة المعلومات عنه عند من ترجموه من المؤرخين برغم شهرته كمحدث ومؤرخ ، ومع كثرة من ترجموه ، فان التراجم على كثرتها ـ يكرر بعضها بعضا ينقل اللاحق عن السابق ، وقد كنا نتوقع أن يترجمه اثنان من معاصريه كانا على صلة قريبة منه ، هما ياقوت الحموى والقفطى ٠ فقد كان ياقوت صديقا حميما لابن الأثير بحيث عهد اليه بتوصيل كتبه التى أوقفها الى بغداد بعد وفاته ، ومع ذلك فانه ضن عليه بترجمة فى كتابه

« معجم الأدباء » مع أنه ترجم للقفطى ترجمة حافلة ، بالرغم من ان القفطى كان على قيد الحياة كابن الأثير • وأما القفطى ، فانه كثيرا ما اجتمع بابن الأثير ، وقد أمده ابن الأثير بمعلومات طيبة عن أخيه مجد الدين الذى ترجمه القفطى فى كتابه « انباه الرواة على انباه النحاة » ومع ذلك لم يترجمه ، وان كان ذكره فى موضع طعن سنذكره فى حديثنا عن أخلاق ابن الأثير • أما معاصره الثالث « المنذرى » فقد ترجمه ترجمة قصيرة فى كتابه « التكملة لوفيات النقلة » • وكذلك ترجمه معاصره الرابع ابن خلكان ترجمة قصيرة فى كتابه « وفيات الأعيان » بالرغم من أن صلته به كانت صلة وثيقة كما صرح ابن خلكان نفسه بذلك • أما ابن الأثير نفسه ، فقد ضن بالحديث عن نفسه الا فى مناسبات قليلة ، وعلى ذلك ، فان ترجمة ابن الأثير التى نقدمها ، فانما نقدمها فى ضوء ما عثرنا عليه من معلومات ، سواء ما ذكره هو عن نفسه ، أو ما ذكرته عنه المصادر التى تحدثت عنه •

مولده :

ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر فى اليوم الرابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ونشأ بها • ويذكر ابن خلكان أن ابن الأثير انتقل الى الموصل مع والده وأخويه وأقاموا بها اقامة دائمة ، ولكنه لا يحدد — لا هو ولا غيره من المؤرخين — السنة التى انتقل بها الوالد بأولاده اليها ، ولكن اليونينى يترجم لضياء الدين — أخى المؤرخ — فيقول : انه ولد بجزيرة ابن عمر « وانتقل الى الموصل مع والده فى رجب سنة تسع وسبعين وخمسمائة » •

نشأته وتعليمه :

ولم تمدنا المراجع بأية معلومات عن طفولة ابن الأثير وصباه ، وان كان من المفروض ، أن يكون قد قضى طفولته وصباه فى

الجزيرة كما يقضيها أبناء الأسر البارزة ، وأن والده قد هيأ له ولأخويه أسباب الحياة الرغدة الميسرة · كما هيـــأ لهم سبل التعليم ، فألحقهم بأحد مكاتب الجزيرة على ما جرت عليه تقاليد أهل ذلك العصر فى تعليم صـــبيانهم ، فحفظ القرآن ، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، ولما شب عن الطوق التحق ببعض مدارس الجزيرة ، ثم نشط للتحصيل العلمى ، فأخذ يتنقل بين الجزيرة والموصل لتحصيل العلم عن شيوخهما · حتى انتقل الى الموصل فأقام بها اقامة دائمة · وكان لهذا الانتقال أهميته ، فقد انتقل من حيز الجزيرة الضيق الى فضاء الموصل الفسيح ، فقد كانت الموصل فى ذلك الوقت تزخر بالأسر العلمية : كأسرة بنى منعة ، وبنى الشهرزورى ، وبنى بلده جى ، وبنى المهاجر ، وبنى النقيب ، وبنى هبل ، وكان فى كل أسرة من هذه الأسر شيوخ علمـــاء متخصصون فى العلوم المختلفة ، وفيها شباب قرناء لابن الأثير فى العمر يحصلون العلوم ، فضلا عن علماء أجلاء من ذوى الأسر غير المعروفة من الفقهاء ، والمحـــدثين ، والمفسرين ، والأدباء ، والرياضيين · والى جانب هؤلاء العلماء ، كانت هناك المعاهد العلمية التى أنشأها ملوك بنى زنكى فى الموصل ، كالمدارس والمساجد والرباطات ، وليس من شك فى أن هـــذا الجو العلمى نشط ابن الأثير الى مواصلة التحصيل ، فأخذ يتردد على مجالس العـلم فيها ، كما كان ينتهز فرصة مسيره الى الحج فكان يجتمع على شيوخ بغداد ويسمع منهم ، كذلك كان ينتهز فرصة تردده الى الشام فيجتمع على شيوخها · ففى الموصل سمع من : أبى الفضـــل خطيب الموصل ، وأبى الفرج يحيى الثقفى ، ومســـلم بن على السيحى · وفى بغداد سمع من : عبد المؤمن بن كليب ، ويعيش ابن صدقة ، وعبد الوهاب بن سكينة ، وأبى أحمد عبد الوهاب

ابن على الصوفى . وسمع فى دمشق من : أبى القاسم بن صصرى ، وزين الأمناء ، وسمع من غير هؤلاء وأولئك من الشيوخ الذين ترجم لهم ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » فقد ترجم لشيخه ابن سويدة التكريتى المتوفى سنة ٥٨١ ، وكان ابن سويدة عالما بالحديث وله تصانيف حسنة ؛ وابن أفضل الزمان المتوفى سنة ٥٨٥ وكان عالما متبحرا فى علوم كثيرة كالفقه ، والأصول ، والحساب ، والفرائض ، والنجوم ، والهيئة والمنطق وغير ذلك ؛ وابن رواحة الذى قتل سنة ٥٨٥ فى وقعة عكا التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين ، وكان ابن رواحة من أهل العلم وكان شاعرا أيضا ؛ وابن صدقة المتوفى سنة ٥٩٣ ، وكان اماما فى الفقه ومدرسا صالحا ، وقد سمع عليه ابن الأثير كثيرا ؛ وابن كليب الحرانى المتوفى سنة ٥٩٦ ، وكان عالى الاسناد فى الحديث ، وكان ثقة صحيح السماع ؛ وابن شبه النحوى المتوفى سنة ٦٠٣ ، وكان عارفا بالنحو واللغة والقراءات والفقه والحساب ؛ وابن طبرزد المتوفى سنة ٦٠٧ . وكان عالى الاسناد .

ويحدثنا ابن الأثير فى مناسبات قليلة فى ثنايا بعض الأخبار وعن طريق تراجمه لشيوخه عن العلوم التى درسها وهى : الحساب ، واللغة ، والفقه ، والحديث ، ولعله درس غيرها من العلوم : كالأصول ، والفرائض ، والمنطق ، والهيئة ، والقراءات ، فان من شيوخه من كان يتقن أكثر من علم — كما رأينا من تراجمه لمن ترجم لهم من الشيوخ — . ودراسته لعلم الحساب ذكر فى كتابه الكامل فى خبر كسوف الشمس الذى حدث فى سنة ٥٧١ هـ ، ودراسته للحديث ذكره فى خبر الغلاء الذى حدث فى سنة ٥٧٤ واستمر حتى سنة ٥٧٥ . كذلك يذكر فى ترجمته لعبد الله بن محمد ابن عبد الله المعروف بابن هزارمرد الصريفينى المتوفى سنة ٤٦٩ . أنه « راوية أحاديث على بن الجعد وهو آخر من رواها ، وكان ثقة صالحا ، ومن طريقه سمعناها » .

ثقافته :

وقد اهتم ابن الأثير بنوعين من الثقافة، اختارهما لنفسه، هما : الثقافة الدينية واختار منها علم « الحديث » وتخصص فيه حتى أصبح كما يقول ابن خلكان وغيره - « اماما فى حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به » ، والثقافة الأدبية واختار منها « التاريخ » وتخصص فيه حتى أصبح - كما يقول ابن خلكان وغيره أيضا - : « حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم » و « عارفا بالرجال وأنسابهم لا سيما الصحابة » . ولكن التاريخ جذبه اليه أكثر مما جذبه علم «الحديث» ، ويؤكد هذا تصريحه بذلك فى قوله - فى مقدمة كتابه « الكامل فى التاريخ » وذلك فى معرض حديثه عن سبب تأليفه الكتاب - : « أما بعد ؛ فانى لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثرا للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها ، مائلا الى المعارف والآداب والتجارب المودعة فى مطاويها » ويؤكده أيضا اقتصاره على التأليف فى التاريخ وحده دون « الحديث » ، كما يتبين ذلك من مؤلفاته التى سنتحدث عنها فى الفصل الرابع .

ويبدو أن قراءاته الأدبية من نثر وشعر كانت كثيرة وعميقة ، بحيث جعلت منه أديبا ذواقة ، وبحيث نصب نفسه حكما فيما يقرأه من المنثور والمنظوم فهو يذكر أن أبا نصر بن مشكان - كاتب الانشاء للسلطان محمود بن سبكتكين - كان « من الكتاب المفلقين » وانه رأى كتابة له « غاية فى الجودة » ، ويقول عن مسعود ابن المحسن البياضى الشاعر أن « له شعر مطبوع » ، ويعجب أيضا بقصيدة قالها عامر بن الاطنابه فى (حرب فارع بسبب الغلام القضاعى) - والحرب من أيام العرب فى الجاهلية - فيذكر القصيدة برغم طولها وبرغم خلوها من ذكر الحرب ، ويعتذر عن اثباتها بقوله : « وانما أثبتنا هذه الأبيات - وليس فيها ذكر

الوقعة ـ لجودتها وحسنها » . هذا بالاضافة الى اعجابه بحكم القدامى وبلاغتهم ، فقد دون نص رثاء حكماء اليونان للاسكندر ، ثم قال فى نهاية الرثاء : « فهذا كلام الحكماء فيه مواعظ وحكم حسنة ، ولهذا أثبتها » .

مكانته فى عصره :

وينحصر نشاط ابن الأثير العلمى ، فى علمى التاريخ والحديث كما ذكرنا ، وعن طريق هذين العلمين اشتهر ابن الأثير فى عصره . ولكن يبدو أن شهرته فى عصره كمؤرخ أكثر منه كمحدث ، يتبين هذا مما ذكره ابن الأثير نفسه فى مقدمة كتاب « الكامل » ـ وذلك فى معرض حديثه عن ظروف اخراجه الكتاب ـ حيث يقول انه قرأ الكتاب على بعض اخوانه فى مجالسه قبل أن يخرجه بل قبل أن يهذبه بطلب منهم ليرووه عنه ، كذلك يذكر أن الذى نشطه على الاسراع فى اخراج الكتاب ، هو الأمر الذى أصدره اليه بدر الدين لؤلؤ مدبر مملكة الموصل باخراجه ، وامتدت هذه الشهرة الى الشام أيضا ، حيث يذكر فى مقدمة كتابه « أسد الغابة » ظروف تأليفه هذا الكتاب ، فقال : انه ألفه فى الشام بطلب من « جماعة من أعيان المحدثين وممن يعتنى بالحفظ والاتقان » فقد قالوا له : « اننا نرى كثيرا من العلماء الذين جمعوا أسماء الصحابة يختلفون فى النسب والصحبة والمشاهدات التى شهدها الصاحب ، الى غير ذلك من أحوال الشخص ولا نعرف الحق فيه ، ثم حثوا عزمه على جمع كتاب لهم فى أسماء الصحابة يستقصى فيه ما وصل اليه من أسمائهم ويبين الصواب فيما اختلف فيه المؤرخون السابقون عليه ، فاستجاب لهم وأخرج الكتاب ، وهذا لا يعنى فقط شهرته كمؤرخ فى الشام ، وانما يعنى أيضا الثقة به مؤرخا دقيقا عالما .

وأما شهرته كمحدث ، فانها تبرز فيما ذكرته التراجم عنه ، فيذكر الذهبى ، أن ابن الأثير كان يسمع « الحديث » فى الموصل

ودمشق وحلب ، ويذكر أيضا أنه جعل بيته مأوى لطلبة العلم •
ويذكر المنذرى أن منزل ابن الأثير « كان مجمع الفضلاء وأصحاب الحديث » • وقد ذكرت بعض المصادر أسماء تلاميذ ابن الأثير ومن روى عنه ، ويحتمل أن هذه المصادر لم تذكر كل تلاميذه ومن سمع منه ومن روى عنه وانما اقتصرت على بعضهم • فيذكر السبكى منهم : الزينبى ، والشهاب القوصى ، والمجد بن أبى جرادة ، والشرف ابن عساكر ، وسنقر القضاعي ، ويزيد الذهبى على السبكى : ابن الدبيثى • ويذكر الذهبى أيضا حديثا سمعه من شيخه عن ابن الأثير : « أخبرنا أحمد بن هبة الله (أنا) على بن أبى الكرم سنة خمس وعشرين وستمائة ••• » ثم ذكر الحديث • ويذكر النووى حديثا سمعه الشيخ تقى الدين صاحب المكابى من ابن الأثير : « آخبرنى بدمشق بقراءتى الشيخ الأصيل المؤرخ عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ثم الموصلى ابن الأثير من أصل سماعه ، قال : ••• » ثم ذكر الحديث • وقرأ على ابن الأثير أيضا ، الشيخ عبد الله بن بلده جى « الأجزاء الراجيات » ، وقد مدح ابن بلده جى ، ابن الأثير ، فقال : انه « كان عالما فى السير وفنون الآداب والتواريخ ، صحبته كثيرا سفرا وحضرا ، وأجاز لى مرارا » • ويصرح ابن خلكان فى أكثر من مناسبة فى كتابه : (وفيات الأعيان) ، بأنه كان تلميذا لابن الأثير فهو يذكر فى ترجمته لسهل بن عبد الله التسترى : « وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه ، أن مولده سنة مائتين ••• » ويذكر أيضا فى ترجمته لمظفر الدين كوكبورى : « قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن على المعروف بابن الأثير الجزرى •• » ثم نقل ما ذكره ابن الأثير عن مظفر الدين •
ويذكر ابن الطقطقى فى مقدمة كتابه « الأحكام السلطانية » أن بدر الدين لؤلؤ ــ الذى سبق أن ذكرناه ــ « كان اذا دخل شهر رمضان ، أحضرت له كتب التواريخ والسير ، وجلس الزين الكاتب وعز الدين المحدث يقرآن عليه أحوال العالم » •

أما مكانته الاجتماعية ، فليس من شك ، فى أن ابن الأثير كان يتمتع بمكانة رفيعة عند معاصريه ، وقد اكتسب هذه المكانة ، من مكانة أسرته ومن شخصيته كعضو فيها ، وليس عن طريق وظائفه فى الحكومة الموصلية أو غيرها ، ذلك أنه لم يثبت أنه شغل وظيفة ما طول حياته ، بل ان بعض تعليقاته ـ فى كتابه « الكامل » ـ على ما نال بعض الموظفين الكبار من اضطهاد على يد ملوكهم ، تعنى أنه كان عزوفا عن المناصب الحكومية وكارها لها ، فهو يعلق على النكبة التى حلت بأبى الفضل وزير عز الدولة البويهى سنة ٣٦٠ بقوله : « نعوذ بالله من سوء الأقدار ، ونسأله أن يختم بخير أعمالنا ، فان الدنيا الى زوال هى » . ويعلق بقوله على النكبة التى نزلت ببنى جهير ـ وزراء الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة سنة ٤٩٥ ـ : « وهذه عاقبة خدمة الملوك » كذلك يعلق على مقتل الوزير سعد الملك ـ وزير السلطان محمد السلجوقى سنة ٥٠٠ ، فيقول : « وهذا آخر خدمة الملوك » . هذا وان كان المنذرى يقول : ان ابن الأثير دخل بغداد حاجا ورسولا » ، ويكرر ابن خلكان عبارة المنذرى ، كذلك يذكر الذهبى أن ابن الأثير « قدم الشام رسولا » ، وهذا يعنى أنه كان رسولا عن ملوك الموصل الى حكومة بغداد والى صلاح الدين الأيوبى وخلفائه فى الشام ، ولكن هذه الأقوال ـ فيما نرجح ـ لا تعنى شيئا ـ لأنها لا تحدد الزمن الذى سار فيه ابن الأثير الى بغداد والشام ، كذلك لا تذكر أسماء ملوك الموصل الذين أرسلوه ، ولا المناسبات أو المهام التى أرسل من أجلها . ويذكر ابن كثير ، أن ابن الأثير وزر لبعض ملوك الموصل ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك . ونحسب أن الأمر قد التبس على هؤلاء المؤرخين ، فخلطوا بين ابن الأثير المؤرخ وبين أخيه ضياء الدين الأديب الذى وزر فعلا لملوك الموصل المتأخرين ، وسفر لبدر الدين كما ذكرنا ذلك فى ترجمته .

ويذكر المنذرى ، ويتفق معه ابن خلكان ، أن بيت ابن الأثير ،

كان مجمع فضلاء أهل الموصل والواردين اليها وأصحاب الحديث ، فاذا أضفنا الى هذا ما عرفناه عن أصدقائه الذين ترجمهم فى كتابه « الكامل » ، وأنهم كانوا من الأدباء ، والشعراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والصالحين ، عرفنا أن بيت ابن الأثير كان منتدى ثقافيا دينيا في الموصل ، فمن أصـــدقائه : المعين أبو الفتوح الفقيه الشاعر ؛ وابن العجمى الحلبى وهو من مقدمى السنة فى حلب ؛ وابن ظفر ، وهو من الأولياء أرباب الكرامات ؛ وابن عبدوس الشاعر ؛ وياقوت الموصلى الكاتب ؛ وابن النطرونى الشاعر الأديب ، والنشو بن نفاذه الشاعر وغيرهم ممن أهمل ترجمتهم من صدور الناس ، مثـــل : محمد بن ابراهيم ـ والد المؤرخ ابن خلكان ـ حيث يذكر ابن خلكان، أنه كان بين والده وبين ابن الأثير « مؤانسة أكيــدة » ، ومثل ياقوت بن عبـــد الله الرومى صـــاحب كتاب « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » .

واذا كانت لا توجد أخبار تعطينا أى فكرة عما كان يدور فى منتدى ابن الأثير من أحاديث ، فانها على كل حال أحاديث منوعة : تاريخية: وسياسية ، وأدبية ، ودينية ، فقد ذكر ابن الأثير فى مقدمة كتابه « الكامل فى التاريخ » أنه كان يقرأ كتـــابه « الكامل » ـ قبـــل اخراجه ـ على أصحابه . ويذكر فى ترجمته للخليفة الظاهر بأمر الله فى سنة ٦٢٣ ـ وكان ابن الأثير معجبا به لحسن سيرته ، وكانت مدة خلافته قصيرة ـ فيقول متأسفا لموته : « ولم أزل ـ علم الله سبحانه ـ مذ ولى الخلافة ، أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد أهله ، وأقول لكثير من أصدقائنا : ما أخوفنى أن تقصر مدة خلافته لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته ، فكان كذلك » . ولابد أن الواردين على الموصل من أصدقائه كانوا يتحدثون عن أحداث بلادهم وأخبارها ، فكانوا مصادر هامة له ، فعن طريقهم كان يجمع أخبار بلادهم ، ولذلك كثيرا ما يذكر فى أخباره مصادر

معماة ، مثل قوله : « حكى لى » و « بلغنى » و « سمعت » ، فهو يدون بعض الأخبار عن القتال بين المسلمين وبين الهنـــود ســـماعا منهم ، حيث يذكر فى سنة ٥٤٧ ، خبرين عن معركتين جرت بين المسلمين والهنود ، ويقول فى نهاية الخبر الثانى « وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبهان هاتين الوقعتين المذكورتين وفيهما بعض الخـــلاف ، وقـد ذكرناهمـــا سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » . كذلك سمع بعض أخبار التتر من بعض المهاجرين من أهل بخارا ومراغة وذلك فى الخبر الذى ذكره تحت عنوان (ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته) سنة ٦١٧ ، فبعد أن ذكر الخبـــر قال : « هكذا ذكر لى بعض الفقهاء ممن كان ببخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منم ووصل الينا . وغير ذلك من الأخبار .

وقد كون ابن الأثير لنفسه مكانة ممتازة فى الشام بسبب تردده عليها أكثر من مرة ، فقد تردد عليهـا فى سنوات : ٥٨٤ و ٥٩٠ و ٦٢٥ و ٦٢٦ ، وكان يقضى فى كل مرة مدة تطول وتقصر ، فقـد ظل ــ مثلا ــ يتردد بين حلب ودمشق بين سنتى ٦٢٦ و ٦٢٨ ،ولم يعد الى الموصل الا فى أثناء سنة ٦٢٨ ، ويلاحظ أن سفره الى الشام كان أيام الأيوبيين ، وقد نتج عن أسفاره هذه عقد صداقات مع علماء الشام ورجالها البارزين من أبناء الأسرة الأيوبية وكبار موظفى حكومتهم ، فنال فيها شهرة عريضة ، فقد اشتهر فى الوسط العلمى كمحدث ومؤرخ ، وكان يدرس الحديث ويسمعه ، وقد سبق أن أشرنا الى الحديث الذى سمعه شـــيخ الذهبى من ابن الأثير ، وأيضا الى الحديث الذى سمعه منه الشيخ تقى الدين بدمشق ، وكذلك أشرنا الى ما ذكره ابن الأثير من أنه ألف كتابه « أســد الغابة » فى الشام بطلب من بعض علمائها .

كذلك كان على صلات وثيقة بأبناء الأسرة الأيوبية وبكبار رجال

حكومتها ، ولكن ابن الأثير لا يذكر علاقته بواحد منهم صراحة ، حتى علاقته الوثيقة بطفريل مدبر أمور حلب ، فانه يخفيها ، وحين يدون أخباره وحسن سيرته فى الحكم ، يدونها وكأنه لا يعرفه معرفة شخصية وانما كمن يسمع عنه فقط ، فيقول « فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل » هذا فى الوقت الذى أبرز فيه ابن خلكان علاقة ابن الأثير بطغريل فى ترجمته لابن الأثير ، فيقول : انه (ابن خلكان) لما وصل الى حلب فى أواخر سنة ٦٢٦ هـ « كان عز الدين المذكور (يعنى ابن الأثير) مقيما بها فى صورة الضيف عند الطواشى شهاب الدين طفريل الخادم أتابك الملك العزيز بن الملك الظافر صاحب حلب ، وكان الطواشى كثير الاقبال عليه ، حسن الاعتقاد فيه مكرما له » واخفاء ابن الأثير أسماء الشخصيات البارزة التى له علاقة بها يدعو الى التساؤل ، ولعل سبب ذلك عزوفه عن الحديث عن نفسه ، أو لأنه كان يستقى الأخبار المثيرة عن الأيوبيين من أصدقائه الأيوبيين ومن لهم صلة بهم فلم يشأ احراجهم بالتصريح بأسمائهم . وعلى كل حال ، فان مجالس طفريل التى كان يحضرها ابن الأثير لابد وأنها كانت حافلة برجال حلب البارزين من علماء وأدباء وموظفين وبمن يفد اليها من مدن الشام وغيرها ، فكان ابن الأثير يتعارف عليهم ، وتنعقد بينه وبينهم صلات وصداقات .

وكان ابن الأثير ينتهز فرصة وجوده فى الشام أيام صلاح الدين ، فكان يخرج معه فى غزواته لقتال الصليبيين – لا كمحارب – وانما كمشاهد ، وقد صرح ابن الأثير أنه كان فى الشام فى سنة ٥٨٤ ، وأنه كان « فى عسكر صلاح الدين يريد الغزاة » ، كذلك يصرح أنه حضر معه فتح « برزية » وغيرها .

وقد أفادته رفقته لصلاح الدين فى غزواته ، فقد يسرت له هذه الرفقة وصف المعارك كما شاهدها ، فدونها فى كتابه « الكامل » تدوين شاهد عيان ، كذلك أوقفته على بعض تصرفات صلاح الدين

الحربية الخاطئة فنقدها ، كذلك أفادته علاقاته ببعض الشخصيات الأيوبية والمتصلين بالأيوبيين فى الوقوف على كثير من أخبارهم الخاصة التى انفرد بها عن المؤرخين المعاصرين للأيوبيين .

حياته الخاصة :

والمعلومات عن حياة ابن الأثير الخاصة قليلة ، وقد جمعناها من ثنايا بعض الأخبار العامة التى دونها بنفسه ، فهو ـ على سبيل المثال ـ قد ذكر أنه حج أكثر من مرة ، فذكر حجته الأولى فى خبر مقتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة العباسى سنة ٥٧٣ هـ ، فقد دون حادث مقتله كما شاهده . وأما الحجة الثانية فكانت سنة ٥٧٦ ، وقد ذكرها فى خبر خروج عرب « زعب » على الحجاج ونهبهم اياهم فى سنة ٥٤٥ ويلاحظ أن الحجتين كانتا وهو فى مقتبل عمره ، أما الحجة الثالثة ، فقد كانت فى سنة ٦٢٠ أو بعدها ، حيث يذكر فى خبره (ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى) سنة ٦٢٠ ، أن صاحب اليمن لما وصل مكة نهبها عسكره الى العصر ، ثم يقول : « فحدثنى بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم » . وكان ابن الأثير يسير الى الحج برفقة أخيه الأكبر مجد الدين ، حيث يذكر فى ترجمته لشيخه ابن صدقة المتوفى سنة ٥٩٣ ، أنه سمع على الشيخ ببغداد مع أخيه مجد الدين أثناء عودتهما من الحج ، ولكنه لم يحدد هل كان ذلك فى سفرته الأولى أو الثانية ، ولم تكن فى سفرته الثالثة ، لأن أخاه توفى سنة ٦٠٦ .

وكان ابن الأثير يعيش عيشة أرستقراطية ، فقد كان يقتنى الجوارى أسوة بالأسر الأرستقراطية الموصلية ، فكان يشترى الجوارى من جنسيات مختلفة ، فقد ذكر أنه اشترى جارية من السبايا الصليبيات عندما كان فى الشام ، كذلك اشترى جارية من جوارى الملك محمود الزنكى صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان يستقى من

أولائى الجوارى الأخبار التى تهمه . كذلك لم يكن يتأثر ـلثرائهـ بما تسببه المجاعات أو الغلاء فى الموصل من ضيق وحرمان ، بل كان فى قدرته شراء ما يعز على الناس شراؤه ــ مثل اللحم ــ حيث يذكر فى خبره عن الغلاء الذى حـــدث فى الموصل والجزيرة فى سنة ٦٢٣ هـ ، والذى بسببه أكل الناس الميتة والكلاب والسنانير حتى قل عددهم بعد أن كانوا كثيرا ، فيقول : «ولقد دخلت يوما الى دارى فرأيت الجـــوارى يقطعن اللحم ليطبخوه ، فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر سنورا » . ولكن يبدو أن ابن الأثير واجهته بعض المضايقات أو العسر المالى فى أواخر حياته ، حيث يقول فى مقدمة كتابه « الكامل » انه بعد أن جمع مادة الكتاب ، أهمل أخراجه برغم الحاح أصحابه عليه ، لأن « العزم على اتمامه فاتر ، والعجز ظاهر ، للاشتغال بما لابد منه لعدم المعين والمظاهر ، ولهموم توالت ، ونوائب تتابعت » ثم اضطر الى اخراج الكتاب ولم يوضح ابن الأثير نوع الهموم (والنوائب التى تتابعت عليه ، لا فى المقدمة ولا فى ثنايا الكتاب) .

أخلاقه :

يجمع من ترجم ابن الأثير على أنه كان يتحلى بالخلق الفاضل والصفات الحميدة ، يقول معاصره ابن خلكان ، انه اجتمع به فى حلب ، فوجده « رجـلا مكملا فى الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع » . واذا كان كل من جاء بعد ابن خلكان يرددون قوله عن ابن الأثير ، الا أنه من الملاحظ ، أننا لم نقف على طعون أو مآخذ وجهت الى أخلاقه ، سوى القفطى الذى يحمل عليه بسبب مكتبة ياقوت الحموى ، حيث يتهمه بسرقة المكتبة . يقول القفطى فى ترجمتـــه لياقوت : « وقبل موته أوصى بأوراقه ومجموعاته الى العز بن الأثير الموصلى ــ وكان مقيما بحلب ــ وعهد اليه أن يسيرها الى وقف الزيدى ببغداد أو يسلمها الى الناظر فيه الشيخ عبدالعزيز بن دلف ، واحتاط

نواب الأيتام على ماله الى أن حضر ولد سيده من بغداد بكتاب حكمى وتسلم ما خلفه • وأما ابن الأثير فانه تصرف فى الكتيبات التى له ، والأوراق المجمعة التى بخطه تصرفا غير مرضى ، ولم يوصلها ـ بعد أن حصل بالموصل ـ الى الجهة المعينة برسمها ، بل فرقها على جماعة أراد انتفاعه بهم وبها عندهم ، ولم ينفعه الله بشىء من ذلك ، ولم يتمل منها بأمل ولا مال ، وقطع الله أجله بعد أن قطع من الانتفاع بتفرقتها أمله ، فاكتسب خزى الدنيا وعذاب الآخرة » • ثم يقول : « وبلغنى أن خبرها وصل الى بغداد ، وأنهم طالبوه من هناك بتسييرها الى محل وقفها ، فسير بعضها وأعرض عن بعض ، فنعوذ بالله من سوء القضاء والقدر » • فالقفطى يتهم ابن الأثير بأنه خان الأمانة ، وتصرف فى المكتبة وأعطى كتبا منها لبعض الناس ليحقق منفعة شخصية مادية وأدبية ، ويغمزه غمزا جارحا يتبين منه الحقد عليه ، ثم يشمت به لموته قبل أن يحقق غرضه • والقفطى يختلف مع ابن خلكان فى مصير المكتبة ، حيث يقول ابن خلكان فى ترجمته لابن الأثير ، ان ابن الأثير سلم المكتبة الى الوقف كاملة • وقد حاولنا الفصل بين اتهام القفطى وما ذكره ابن خلكان عن طريق المصادر فلم نصل الى شىء ، وذلك لأننا لم نجد اتهام القفطى عند غيره ممن ترجم لابن الأثير أو ياقوت • غير أنه يمكن تفسير حملة القفطى على ابن الأثير بوجود خصومة بين الرجلين ، فقد كان كل منهما على صلة بطفريل مدبر أمور حلب الذى ذكرنا علاقة ابن الأثير به ، فأما علاقة ابن الأثير به فكانت علاقة صداقة ، وأما صلة القفطى بطفريل فكانت صلة صداقة وعمل ، فقد كان القفطى رئيسا لديوان حلب أيام صاحبها الملك غازى الأيوبى حتى وفاة الملك سنة ٦١٣ ، ولما خلفه ابنه الملك العزيز اعتزل القفطى منصبه ، فأجرى عليه طفريل حتى سنة ٦١٦ ، ثم ألزمه فى هذه السنة بتولية رئاسة الديوان فظل به حتى سنة ٦٢٨ • وليس من شك فى أن كلا من ابن الأثير والقفطى تعارفا عند طفريل ، وكانا يحضران مجالسه ، فقد أمد ابن الأثير ، القفطى بمعلومات عن أخيه

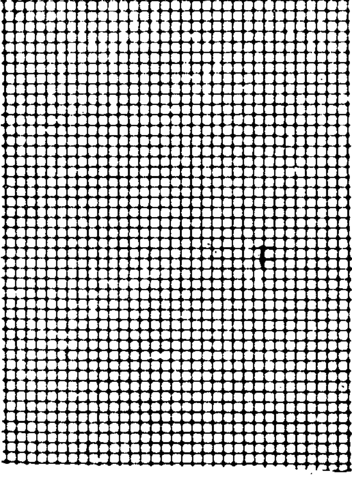
مجد الدين لما ترجمه القفطى فى كتابه « انباه الرواه » • والراجح أن الخصومة مصدرها أحد سببين أو كلاهما معا ؛ فأما السبب الأول ، فلعل طفريل كان أكثر ميلا الى ابن الأثير من القفطى ، فقد كان طفريل كثير الاقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد به ـ كما يقول ابن خلكان ـ وهذا يعنى أن ابن الأثير كان مشتهرا بالصلاح والتقوى ، وهـــذا ما حبب طفريل فى ابن الأثير ، فقـــد كان طفريل بدوره معروفا بالصلاح ، فلذلك كان يبره ويميزه عن غيره من أصحابه ، الأمر الذى أوغر صدر القفطى على ابن الأثير فناصبه العداء غيرة منـــه وحسدا ؛ فاتهمه بما اتهمه به شفاء لغليله . أما السبب الآخر ، فهو تصرف ياقوت نفسه بوقفه مكتبته ، واختيار ابن الأثير لتوصيلها الى محل الوقف ، ولعل القفطى كان يأمل فى أن يرث هو المكتبة للصلة الوثيقة التى كانت بينه وبين ياقوت ، فلما خاب أمله اغتاظ من ابن الأثير وياقوت ، فحمل على ياقوت أيضا فترجمه ترجمـــة قادحة ؛ فطعنه فى خلقه ، وصغر شأنه ، وحقر مؤلفاته ، حيث يقول فى ترجمته له ، انه عرف ياقوتا عن طريق عرض ياقوت عليه كتبا للشراء لعلمه بغرامه بالكتب ، وأن ياقوتا عندما وصل الى حلب للاقامة فيها ، كتب الى القفطى : « قد ألقيت عصاى ببابك ، وخيم أصلى بجنابك » ، يقول القفطى : « فقلت فى جوابه : أقاسمك العيش ، سألت الله أن يرزقنى الثبات لا الطيش ، فان أخلاقه خلقه ، ومخاريقه منخرقة ، ولا أقع من دينه من حيث القاذورات • وأما من حيث تصرفه الموجب له التفرق والشـــتات ، فأقام مشاركا المعلوم ، باذلا كتب العلوم ، فلفق منها مجموعات لم يكملها ، ونسخ وباع فى مدة سنين أقامها عندى محول الكلفة بحكمة اقتضاها حاله •• » هذا فى الوقت الذى مدح فيه ابن المستوفى مؤلفات ياقوت ، ومدح ابن خلـــكان خلقه فقال : « ان الناس كانوا عقيب وفاته يثنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه » ويأسف ابن خلكان لأنه لم يقدر له الاجتماع به • •

وما ذكره القفطى عن ابن الأثير ينقضه ما عرفناه عن خلقه من ثنايا حملاته على ذوى الأخلاق المنحرفة وان كانوا من الخلفاء ، فمن ذلك انكاره على الخليفة القاهر العباسى غشه وخداعه لنفعه الشخصى ، حيث يذكر فى أخبار سنة ٣٢١ ، أن الخليفة أمر بتحريم الخمر والغناء ، وأنه « أمر ببيع الجوارى المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع من يشترى له كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منها ما أراد بأرخص الأثمان ، وكان القاهر مشتهرا بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طريقا الى تحصيل غرضه رخيصا » فيعلق ابن الأثير على تصرف الخليفة بقوله : « نعوذ بالله من هذه الأخلاق التى يرضاها عامة الناس » .

وكان ابن الأثير يكره البخل والبخلاء ، فيذكر عن منصور ابن مروان – وكان صاحب ديار بكر فأقصى عن ملكه وحبس فى بيت يهودى ومات فيه – أنه كان « شديد البخل وله فى البخل حكايات عجيبة » ثم يعلق على ذلك بقوله : « فتعسا لطالب الدنيا المعرض عن الآخرة ، ألا ينظر الى فعلها بأبنائها ، بينما هذا منصور ملك من بيت ملك آل أمره الى أن مات فى بيت يهودى ! نسأل الله تعالى أن يحسن أعمالنا ، ويصلح عاقبة أمرنا فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه » . وكراهة ابن الأثير للبخل معناه أنه كان كريما ، ومن كرمه أنه جعل بيته مأوى للطلبة ، ومعنى هذا أنه كان ينفق عليهم طوال مدة اقامتهم فى بيته .

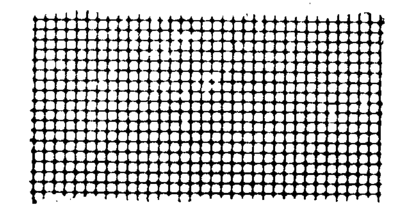
وفاته :

وقد توفى ابن الأثير – باجماع الثقات – فى سنة ٦٣٠ ، مع اختلاف فى الشهر الذى توفى فيه ، فابن خلكان يقول انه توفى فى شهر شعبان ، وأما السبكى فيقول انه توفى فى شهر رمضان . ويقول الذهبى (فى تذكرة الحفاظ) أنه رأى خط ابن الأثير « تصحيحا على طبقة سماع تاريخها فى نصف شعبان من السنة » .



الفصل الثالث

ابن الأثير المؤرخ



تخصص ابن الأثير فى التاريخ :

ذكرنا فى الفصل السابق ، أن ابن الأثير اشتهر فى عصره كمحدث ومؤرخ ، ولكنه آثر التخصص فى التأليف فى التاريخ دون « الحديث » ، وذكرنا أيضا سبب تخصص ابن الأثير فى التاريخ ــ كما ذكره هو ــ وهو حبه وميله اليه بطبيعته .

ومن الممكن ارجاع حب ابن الأثير للتاريخ الى علم « الحديث » الذى كان يدرسه أثناء تحصيله العلمى ، حيث وقف على سيرة النبى وسير الصحابة ، متفرقة فى الأحاديث التى كان يسمعها من شيوخه فى حلقات الدرس ، فاستهوته أخبار النبى وأخبار الصحابة ، ثم أراد التوسع فى معرفة سيرة النبى مجموعة ، والاستزادة من سير الصحابة ، فعكف على قراءة كتب السيرة

وتراجم الصحابة ، ثم جرته هذه الكتب المحددة الموضوع الى قراءة كتب التاريخ المنوعة ، كالتاريخ العام ، والتراجم ، والفتوح، والأنساب ، حتى ألم بتاريخ المشرق الاسلامى : العراق ، وفارس، وخراسان ، وما وراء النهر ، وبتاريخ المغرب الاسلامى : أفريقية والأندلس ، وبتاريخ ما بين المشرق والمغرب : مصر ، والشام ، والحجاز ، واليمن ، وكان حبه للتاريخ يزداد كلما ازداد قراءة وتعمقا ، حتى اذا ما تكونت لديه ثقافة تاريخية ممتازة ، شجعته ثقافته هذه على التخصص فى التاريخ علما وتأليفا ، بحيث اشتهر بأنه كان « حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » . ويمكن أيضا اضافة سبب آخر حمس ابن الأثير على التخصص فى التاريخ ، هو أحداث عصره المبكرة التى أشرنا اليها فى الفصل الأول والتى عاشها فى منطقته وهى : الحروب الصليبية ، والصراع الزنكى الأيوبى ، بالاضافة الى أحداث المشرق الاسلامى القريبة منه ، فتحمس لتدوينها ، ثم رأى أن يتوسع فى التدوين وأن يكتب تاريخا عاما للعالم الاسلامى كله ، بعد قراءاته الواسعة ، فاستغرق جمع المادة التاريخية معظم حياته ، وهكذا قرر أن يتخصص فى التاريخ والتأليف فيه : فأخرج كتبه التاريخية الأربعة التى سنتحدث عنها بعد . وقد يكون تقديره للتاريخ من حيث فائدته دخل فى تخصصه فيه ، فابن الأثير يرى – بحسب مفهومه ومفهوم المؤرخين المسلمين عامة – أن للتاريخ فوائد دنيوية وأخروية للمسلمين ، بما تضمنه من أحداث وأخبار الأمم السابقة ، فالتاريخ معمل التجارب والخبرات يتعظ الحاضر من السابق ، ويأخذ عنه تجاربه وخبراته ، وسوف نتحدث عن مفهوم ابن الأثير للتاريخ بعد قليل .

وتخصص ابن الأثير فى التاريخ لا يجعله مؤرخا وحسب كغيره من المؤرخين ، وانما يجعله « عالما » فى التاريخ اذا أخذنا فى

الاعتبار قول ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم » ، وابن الأثير طلب فنا واحدا هو « التاريخ » ولم يشتغل بغيره سوى « الحديث » .

ولا يعنى تخصص ابن الأثير فى التاريخ احترافه لهذا الفن ، وانما الواضح من عنايته بالتاريخ فى كتابه « الكامل » وطريقة عرضه للأخبار ، ومعالجته للأحداث ، ونقده وتعليقاته ، وكذلك من أسلوبه المطعم بالأمثال التى تجرى على ألسنة العامة ، كل هذا يعنى أن ابن الأثير كان « هاويا » للتاريخ ولم يكن محترفا أو متطفلا عليه ، وهذا ما يميزه عن كثيرين من المؤرخين حتى المشهورين منهم .

وقد نوه المؤرخون القدامى بابن الأثير كمؤرخ أصيل ، فقال المنذرى عنه ، انه كان « عارفا بسير وأيام الناس » ، ويعرفه الذهبى بأنه « صاحب التاريخ ومعرفة الصحابة (كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة) والأنساب » . وقال عنه السبكى « الحافظ المؤرخ » ، أما ابن خلكان فانه يقول عنه ، انه كان « حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » .

مفهومه للتاريخ :

وقد قدم لنا ابن الأثير بنفسه مفهومه للتاريخ فى مقدمة كتابه « الكامل فى التاريخ » ، وذلك فى رده اللاذع على المنكرين فائدة التاريخ والطاعنين فيه ، فيقول : « .. ولقد رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة والدراية ، ويظن بنفسه التبحر فى العلم والرواية ، يحتقر التواريخ ويزدريها . ويعرض عنها ويلغيها . ظنا منه أن غاية فائدتها انما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون

اللب نظره ، وأصبح مخشلبا (١) جوهره ، ومن رزقه الله طبعا سليما ، وهداه صراطا مستقيما ، علم أن فوائدها كثيرة ، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة ، وها نحن نذكر شيئا مما ظهر لنا فيها ، ونكل الى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها » .
ثم يذكر فوائدها الدنيوية والأخروية :

« فأما فوائد التواريخ الدنيوية ، فمنها : أن الانسان لا يخفى — أنه يحب البقاء ، ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء ، فياليت شعرى ، أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ؟ فاذا طالعها فكأنه عاصرهم ، واذا علمها فكأنه حاضرهم .

« ومنها ، ان الملوك ومن اليهم الأمر والنهى اذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما أعقب من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهاب الأموال ، وفساد الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها واطرحوها ، واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالها درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التى دفعوا بها مضرات الأعداء ، وخلصوا بها من المهالك واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا .

« ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث

---

(١) المخشلب : خرز يتخذ منه حلى واحدته مخشلبة . (المخصص لابن سيده) .

وما تصير اليه عواقبها ، فانه لا يحدث أمر الا قد تقدم نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لأن يقتدى به أهلا .

« ومنها ما يتجمل به الانسان فى المجالس والمحافل ، من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريفة من طرائفها ، فترى الأسماع مصغية اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره » .

وأما فوائد التاريخ الأخروية ، فمنها : أن العاقل اللبيب اذا تفكر فيها ، ورأى تقلب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها الى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم ، فلم تبق على جليل ولا حقير ، ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير ، زهد فيها وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها ، ورغب فى دار تنزهت عن هذه الخصائص ، وسلم أهلها من هذه النقائص ، ولعل قائلا يقول : ما نرى ناظرا فيها زهد فى الدنيا وأقبل على الآخرة ورغب فى درجاتها العليا ، فياليت شعرى ، كم رأى هذا القائل قارئا للقرآن العزيز — وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام — يطلب به اليسير من هذا الحطام ؟ فان القلوب مولعة بحب العاجل .

« ومنها التخلق بالصبر والتأسى ، وهما من محاسن الأخلاق ، فان العاقل اذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبى مكرم ، ولا ملك معظم ، بل ولا أحد من البشر ، علم أنه يصيبه ما أصابهم ، وينـــوبه ما نابهم ، ولهذه الحكمة وردت القصص فى القرآن المجيد (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فان ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات والأسمار فقد تمسك من أقوال الزيغ بمحكم سببها ، حيث قالوا : هذه أساطير الأولين اكتتبها ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلبا عقولا ، ولسانا صادقا ، ويوفقنا للسداد ، فى القول والعمل ،

وهو حسبنا ونعم الوكيل » . ومفهوم ابن الأثير للتاريخ ، هو نفس مفهوم المؤرخين المسلمين السابقين عليه واللاحقين له ، فهم جميعا يشتركون فى النظرة الى التاريخ الى أنه ــ من حيث فوائده الدنيوية ــ : ثقافة عامة ، وموجه سياسى للحكام ، وأداة الترويح عن النفس ، وسبيل معرفة الحاضر للماضى ، ومعمل التجارب والخبرات ، وسبيل تنظيم الانسان لحياته ، وحافز للهمم ؛ وأنه ــ من حيث فوائده الأخروية ــ : عامل ملطف لمن تصيبه متاعب الدنيا ، وتذكرة وعبرة ، وأداة الوصول الى الله » .

تفكيره التاريخى :

يصف المهتمون بالتاريخ الاسلامى وبالمؤرخين المسلمين من الغربيين ويجاريهم فى الوصف الدارسون الشرقيون ــ يصفون المؤرخين المسلمين بالسطحية ، وبتفضيلهم الكمية فى الأخبار على النوعية ، وهذا الوصف فيه كثير من المبالغة ، واذا كان هناك من المؤرخين من ينطبق عليهم هذا الوصف ، فان هناك أيضا المؤرخين الأصلاء الذين يمتازون بعمق التفكير ، وبتفضيلهم النوعية فى الأخبار على الكمية ، وابن الأثير واحد من هؤلاء المؤرخين الأصلاء ، فقد أثبت فى كتابه « الكامل فى التاريخ » أنه مؤرخ مفكر واع ، ودليل هذا أنه يربط الأحداث المتقاربة أو المتشابهة بعضها ببعض ، ويعلل أسبابها ونتائجها ، مثل ربطه بين غارات المسيحيين على المسلمين فى الغرب والغزو الصليبى على الشام ، وأيضا بين استيلاء المتغلبين على الحكم وبين حرمان أعقابهم منه ، وكذلك ربطه بين تصرفات الخوارزمية السيئة وبين هزائمهم المتتالية من التتر ، وغيرها من الأحداث وهى كثيرة . وقد شهد « روزنثال » ــ وهو أحد الطاعنين فى المؤرخين المسلمين ــ بهذه الميزة لابن الأثير حيث يقول فى معرض

حديثه عن كتاب « الكامل » : « وقد بذل ابن الأثير جهـده – على الأقل – لمراعاة توازن معقول بين الأحداث فى كافة أنحاء العالم الاسلامى ، رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام ، أضف الى ذلك أنه حاول انصاف الأحداث العجيبة وتراجم الشخصيات البارزة دون أن يبالغ فيها ، وعندما يقترب من عصره ، يحاول تفصيل الأحداث التاريخية ولكن دون اخلال ، كما يظهر لمحات من البصيرة التاريخية الحقة ، فهو مثلا يعتبر استيلاء الصليبيين على أنطاكية (١) فى سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨م) جزءا من هجوم ذى ثلاث شعب يشنه العالم المسيحى على الاسلام من أسبانيا وصقلية وقلب الاسلام ، كما أنه يحاول تفسـير سبب عدم استخلاف منشىء الدول بأولادهم ؛ ويحاول فى مكان آخر أن يتفكر فى شأن المؤرخين الآخرين (٢) فى عظم كارثة الغزو التتارى ، غير أن فهمه السيكولوجى فى هذا المضـمار يفوقه فهم ابن أبى أصيبعة الذى كان يعلم أنه : « ما من طامة الا فوقها طامة أعظم منها ، ولا حادثة والا غيرها تكبر عنها » . فروزنثال – وان كان ينتقص من ابن الأثير فى بعض الجوانب – فانه يشهد له بأنه وازن بين أحداث العالم الاسلامى توازنا معقولا ، وأنه أنصف الأحداث والشخصيات التى أرخها ، وكذلك فصل الأحداث التاريخية دون اخلال ، وفوق هذا كله فانه يملك بصيرة تاريخية حقيقية ، وتكفى هذه الميزات عند أى مؤرخ لتضعه فى مصاف المؤرخين المتازين الموثوق بتواريخهم وبآرائهم .

وأما الأمثلة التى ذكرها روزنثال للتدليل على بصيرة ابن الأثير التاريخية ، فشرحها كما يلى :

---

(١) فى الأصل : غزة ، وهو خطأ .

(٢) الواقع ، أن ابن الأثير كان يتفكر فيما يقوله الناس – لا المؤرخين – كما يتبين من نص ابن الأثير الذى سنذكره بعد .

— ففيما يختص بالحروب الصليبية ، فان ابن الأثير ربط بين الغزو الصليبى للشام فى سنة ٤٩١ هـ ، وبين استيلاء الأسبان المسيحيين على مدينة طليطلة من المسلمين فى سنة ٤٧٨ هـ ، واستيلاء المسيحيين على صقلية منهم فى سنة ٤٨٤ هـ ، فاعتبر ابن الأثير الغزو الصليبى حلقة من سلسلة الحركات المسيحية المناهضة للمسلمين ، ولذلك استهل تدوينه للحروب الصليبية بقوله : « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم الى بلاد الاسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس — وقد تقدم ذكر ذلك — ، ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها — وقد ذكرته أيضا — ، وتطرقوا الى أطراف افريقية فملكوا منها شيئا وأخذ منهم ثم ملكوا غيره على ما تراه ، فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا الى بلاد الشام .. » .

— وفيما يختص بعدم استخلاف منشىء الدول بأولادهم ، فان روزنثال يشير الى ما لاحظه ابن الأثير وهو يدون أخبار الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين أن ملكه لم ينتقل الى أبنائه ، وانما انتقل الى اخوته وأبنائهم ، وقد تنبه ابن الأثير ، الى أن هذه الظاهرة لم تكن الأولى من نوعها فى التاريخ الاسلامى وانما سبقتها حالات كثيرة ، ويدون ابن الأثير هذه الحالات فيقول : « قد اعتبرت التواريخ ، فرأيت كثيرا من التواريخ الاسلامية التى يمكن ضبطها ، ورأيت كثيرا ممن يبتدىء الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض أهله وأقاربه ، منهم : أول الاسلام معاوية بن أبى سفيان فهو أول من ملك من أهل بيته ، فتنقل الملك من أعقابه الى بنى مروان من بنى عمه ؛ ثم من بعده السفاح وهو أول من ملك من بنى العباس ، انتقل الملك من أعقابه الى أخيه المنصور ، ثم السامانية وأول من استبد منهم نصر بن أحمد

فانتقل الملك عنه الى أخيـــه اســماعيل بن أحمـد وأعقابه ، ثم يعقـــوب الصـــفار وهـــو أول من ملك من أهـــل بيتـــه فانتقـــل الملك الى أخيــــه عمـــرو وأعقابه ، ثم عمـــاد الدولة ابن بويه وهـــو أول من ملك من أهله انتقـــل الملك عنــــه الى أخويه ركن الدولة وعز الدولة ، ثم خلص فى أعقاب ركن الدولة ومعز الدولة ، ثم خلص فى أعقـــاب ركن الدولة ؛ ثم الدولة السلجوقية وأول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك الى أولاد أخيه داود ؛ ثم هذا شيركوه (١) ــ كما ذكرناه ــ انتقل الملك الى أعقاب أخيه أيوب ، ثم ان صلاح الدين لما أنشأ الدولة وعظمها وصار كأنه أول (ملك) لها انتقل الملك الى أعقاب أخيه العادل ، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب ، وهذه أعظم الدول الاسلامية . ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا » ثم يعلل ابن الأثير سبب هذا الحرمان فيقول : « والذى أظنـــه السبب فى ذلك ، أن الذى يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك ، وقاوب من كان فيه متعلقة به ، فلهذا يحرمه الله أعقابه ، ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له » . والمفهوم من تعليل ابن الأثير حرمان أعقاب مؤسس الدولة من الملك ، أن مؤسس الدولة يؤسس دولته اغتصابا من أصحابها ، فيظل أصحابها فى حسرة على ما ضاع منهم ، فينتقم الله من المغتصب بحرمان أبنائه من الملك ، ويؤكد ابن الأثير رأيه هذا فى سرده لمؤسسى الدولة الذين حرمت أعقابهم من الملك ، فمعاوية ــ بحسب ما يفهم من تعليل ابن الأثير ــ اغتصب الخلافة من على بن أبى طالب وأسس الخلافة الأموية ، والسفاح العباسى اغتصب الخلافة من الأمويين وأسس الخلافة العباسية ؛

---

(١) يعنى ابن الأثير ، أسد الدين شيركوه ــ عم صلاح الدين ــ الذى فتح مصر باسم نور الدين محمود ، ووزر للخليفة العاضـــد الفاطمى . ولما توفى لم يخلفه أحد من أبنائه فى الوزارة وانما خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذى أنشأ الدولة الأيوبية بعد وفاة نور الدين .

وعماد الدولة بن بويه ، اغتصب السلطة والنفوذ السياسى من الخلفاء العباسيين وأسس الدولة البويهية ، وطغرلبك السلجوقى قضى على الدولة البويهية وأسس الدولة السلجوقية ، وأخيرا صلاح الدين ، اغتصب — فى رأى ابن الأثير — ملك بنى زنكى بعد وفاة نور الدين محمود .

— أما فيما يختص بالغزو التترى ، فان روزنثال يشير الى قول ابن الأثير ، وهو يلخص زحف التتر على المشرق الاسلامى ووصولهم الى أرمينية والعراق مكتسحين قوى المسلمين التى حاولت صدهم ، ومخربين كل ما يقع فى أيديهم من البلاد ، فيقول: « وتالله لا أشك أن من يجىء بعدنا اذا بعد به العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها — والحق بيده — فمتى استبعد ذلك ، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى أزماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة .. » وقد علل ابن الأثير سبب نجاح الغزو التترى ، فقال : ان السبب هو أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، كان قد طمع فى حكم المشرق كله ، فاستولى على ممالكه واماراته من أصحابها ، فلما زحف التتر لم يستطع وحده ولا ابنه جلال الدين منكبرتى من بعده الصمود أمامهم ، فاكتسحوا قواتهما فكان نجاحهم السريع فى طى المشرق فى وقت قصير حتى وصلوا الى مشارف الموصل فى أقل من سنتين كما يقول ابن الأثير .

نقده :

وقد أدى تفكير ابن الأثير التاريخى الواعى ، الى تفهمه للأحداث وتعليلها ونقدها والتعليق عليها ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى فى كتابه « الكامل » ، نذكر بعضها على سبيل المثال — لا الحصر — :

فمن نقده التاريخى :

ــ ينقل ابن الأثير خبر « حرب الفجار » (من أيام العرب فى الجاهلية) من الطبرى ، ــ وقد انهزمت قريش فى هذه الحرب ــ وفى خبر الطبرى ، أن الامام الزهرى قال ، بأن النبى لم يحضر الحرب ، وأنه لو حضرها ما انهزمت قريش . فيرد ابن الأثير على الزهرى بقوله : « وهذه العلة ليست بشىء ، لأنه (أى النبى) كان بعد الوحى والرسالة ينهزم أصحابه ويقتلون ، واذا كان جمع قبل الرسالة وانهزموا ففير بعيد » .

ومن نقده السياسى :

ــ ينقل من مصادره خبر قسوة الخليفة عثمان بن عفان على أبى ذر الغفارى الذى كان يدعو الأغنياء الى التنازل عن أموالهم للفقراء حتى كادت تقوم فتنة ، فقبض الخليفة عليه ونفاه الى « الربذة » ، وقد كثر العتب على عثمان واتهموه بالقسوة على أبى ذر ؛ فلم يعجب هذا ابن الأثير فيدافع عن عثمان ــ كحاكم ــ فيقول ، انه لو صح ما قيل عن قسوة عثمان على أبى ذر « لكان ينبغى أن يعتذر عن عثمان ، فان للامام أن يؤدب رعيته وغير ذلك من الأعذار ، لا أن يجعل ذلك سببا للطعن عليه كرهت ذكرها » .

وفى سنة ٥٧٩ قبض الملك عز الدين مسعود صاحب الموصل على مجاهد الدين قايماز مدبر أمور دولته بسبب وشاية ، وولى آخر مكانه ، وكان مجاهد الدين رجلا حازما ، فلما قبض عليه ، انتقض على الملك نوابه فى البلاد التى تحت حكمه ، وخرجوا عن طاعته ، فيعلق ابن الأثير على ما حدث بقوله : « وعلى الحقيقة ، ليس على الدولة شىء أضر من بيشكار (وزير) مدبر لها واقامة غيره ، فان الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه بما يوافقه ويؤذيه ، ويكون الثانى ــ وان كان

كافيا — بمنزلة الطبيب الذى لا يعرف مزاج الانسان وما يوافقه ويؤذيه ، فالى أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح » .

ومن نقده الحربى :

— فى سنة ٦١٥ ، اشتبك كيكاوس بن خسرو — من سلاجقة الروم — فى حرب مع الملك الأشرف الأيوبى ، فانهزمت مقدمة جيشه من جيش الأشرف ففر من المعركة وانهزم ، فيعلق ابن الأثير على فراره بقوله ، « انما فعل هذا لأنه صبى وغر ، لا معرفة له بالحرب ، والا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض » .

كذلك أحسن ابن الأثير بدور الشخصيات البارزة كالحكام وغيرهم — سواء فى العصر الاسلامى أو ما قبله — وأثرهم فى حياة شعوبهم ، فينفعل ابن الأثير مع الأحداث — سواء كان انفعال رضا أو استنكار — ويعبر عن انفعالاته بالتعليق . فمن الشخصيات القديمة التى أعجب بها وامتدحها ، الملك الفارسى كسرى أنوشروان ، فقد أعجبه حكمه وعدالته ، ودون منهجه فى الحكم كما أعلنه كسرى بنفسه ، ثم علق عليه بقوله : « فانظر الى هذا الكلام الذى يدل على زيادة العلم ، وتوفر العقل ، والقدرة على منع النفس ، ومن كان هذا حاله استحق أن يضرب به المثل فى العدل الى أن تقوم الساعة » .

— وكان الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله (توفى سنة ٥٧٥) حسن السيرة عادلا ، فيعجب ابن الأثير به ، ويقول عنه فى ترجمته له : « ومات سعيدا — رضى الله عنه — فلقد كانت أيامه — كما قيل — :

كأن أيامه من حسن سيرته
مواسم الحج والأعياد والجمع

ـ وكان الملك الظاهر غازى الأيوبى صـــاحب حلب (توفى سنة ٦١٦) سيىء السيرة ، وكان يأخذ أموال الناس بغير حق ، ولما توفى خلفه ابنه محمد وكان صغيرا ، وكان الوصى عليه ومدبر أمور حلب رجلا روميا اسمه « طغرل » ؛ فأحسن طغرل السيرة ، وعدل فى الحكم ، فيقارن ابن الأثير بين هذا الوصى وبين الملك غازى وغيره من الملوك فيقول : « وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية ، وأقرب الى الخير منهم ، ولا أعلم اليوم فى ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه ، فالله يبقيه ويدفع عنه ، فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل » .

أما الشخصيات التى استنكر ابن الأثير أعمالها ، فقد سبق أن ذكرنا استنكاره تصرف الخليفة القاهر بالله الذى أمر ببيع الجوارى . ونضيف هنا مثلين آخرين :

ـ **كان الخليفة العباسى الناصر لدين الله (توفى سنة ٦٢٢)** قبيح السيرة سيىء السمعة ، وفى عهده خرج التتر الى المشرق الاسلامى ، وقد راجت شائعة فى ذلك الوقت أن الخليفة هو الذى استدعى التتر ليتخلص من ضغط السلطان خوارزم شاه عليه ، وعندما يترجم ابن الأثير ، الخليفة ، يقول : « وان كان (أى الخليفة) سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا ، من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك ، فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم »[1] .

ـ ويتهاون أوزبك بن البهلوان ـ صاحب بلاد اذربيجان ـ فى الدفاع عن بلاده عندما هاجمه التتر ، وانما آثر السلامة معهم فصالحهم ، فينقده ابن الأثير مستنكرا فيقول : « فلم يخرج اليهم ، ولا حدث نفسه بقتالهم ، لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق ، وانما أرسل اليهم وصالحهم

على مال وثياب ودواب » . ويصفه مرة أخرى بقوله ، « وكان أميرا متخلفا ، لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا ونهارا ، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر ، واذا سمع هيعة طار مجفلا منها ، وله جميع أذربيجان وأران ، وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها » .

حيدته فى التأريخ :

وابن الأثير محايد فى التاريخ للأحداث التى لها صلة وثيقة بأصحابها ، مثل تأريخه للزنكيين وللأيوبيين ، فقد أرخهم فى كتابه « الكامل » بحيدة تامة ، وقد سبق أن ذكرنا أن ابن الاثير وأسرته عاشوا فى ظل الدولة الزنكية ورعايتها ، فلم يمنعه فضل الزنكيين عليه وعلى أسرته من أن يدون أخبارهم تدوينا أمينا ، فمدح من استحق منهم المدح ، وذم من استحق منهم الذم ، ودون الاخبار التى ترفع من شأنهم والأخبار التى تجرحهم . فقد ذكر — على سبيل المثال — غدر عماد الدين زنكى بصاحب دمشق — بعد أن استأمنه صاحب دمشق على ولده نائبه فى حمـــاة — فقبض عماد الدين على ابنه وعلى قواده واعتقلهم — وهم فى ضيافته — واستولى على حماة غدرا فى سنة ٥٢٣ ، كذلك دون خبر غدر عماد الدين أيضا بحامية بعلبك سنة ٥٣٣ — وكانت لصاحب دمشق — وكان قد حاصرها عماد الدين وقاتلها ليستولى عليها ، فاستسلمت له الحامية بعد أن أعطاها الأمان ، ولكنهم لما حصلوا بين يديه أمر بصلبهم فصلبوا الا من استطاع منهم النجـــاة ، « فاستقبح الناس ذلك من فعـــله واستعظموه » كما يقـول ابن الأثير :

وأما حيدته فى تأريخه لصلاح الدين ، فانها جديرة بالتقدير حقا ، ذلك أن صلاح الدين هو الذى قضى على دولة الزنكيين صاحبة الفضل على ابن الأثير وأسرته — كما ذكرنا — وبالرغم

من آن تصرف صلاح الدين هذا أحزن ابن الأثير وأدخل على نفسه الحسرة ، فان حزنه وحسرته لم يمنعاه من أن يؤرخ صلاح الدين تأريخا أمينا ، وأن يمدحه ويشيد ببطولته فى أكثر من مناسبة ، وأن يرافقه فى بعض معاركه مع الصليبيين فى الشام ، وفى الوقت نفسه نقد بعض تصرفاته الحربية وتصرفاته مع بعض الصليبيين أدت الى نتائج سيئة ذكرها ابن الأثير ، مثل : سماحه للمستأمنين الصليبيين فى التجمع فى مدينة « صور » فاستعصى عليه فتحها بعد ذلك . ومثل استبداله حامية عكا مما أدى الى سقوطها فى أيدى الصليبيين ، أى أن ابن الأثير ذكر ما لصلاح الدين وما عليه، دون أن يسمح لحزنه أو حسرته أن يؤثرا على أمانته التاريخية وهو يؤرخه ، ولكن بعض الدارسين المحدثين ، قد فهموا من ميل ابن الأثير الزنكيين ونقده لصلاح الدين ، انه انحراف منه فى تأريخـــه لكل من الزنكيين وصلاح الدين ، واعتبروا نقـــده لصلاح الدين نقدا مفرضا قصد به تجريحه والتشهير به ، كما اتهموه باتهامات أخرى ليشبع نوازع حقده على صـــلاح الدين وحسده له ، وهذا ما نفصله بعض الشىء فى الفصل الخامس من الكتـــاب .

خصائصه :

ولابن الأثير خصائص مميزة تبرزه كمؤرخ ممتاز نذكر منها :

ـ اختياره المصادر ، فانه يتبين من مراجعة المصادر التى اعتمد عليها فى تأليف كتبه ، أنه كان يتخير الأصلية منها والموثوق بها ، كما تدل على حرصه على استقاء مادته من مصادر حظيت بشهرة كبيرة ، ثم انها تؤكد أنه كان معنيا عناية كبيرة فى اخراج مواد مفيدة . وسوف نتحدث عن مصادر كل كتاب من كتبه فى الفصل التالى .

ـ نقده لمصادره : فانه بالرغم من ثقة ابن الأثير بمؤلفى مصادره ، فانه لم يعفهم من النقد اللاذع حين يعثر لهم على خطأ ، غير أنه يستبين من لهجته فى النقد عزة العلماء واستعلاؤهم . فهو برغم اعجابه بالطبرى وبثقته المطلقة بعلمه وبتاريخه « تاريخ الأمم والملوك » بحيث يصفه بأنه « الامام المتقن حقا ، الجامع علما وصحة اعتقاد وصدقا » وأنه اعتمد على كتابه ، لأنه « الكتاب المعول عند الكافة عليه ، والمرجوع عند الاختلاف اليه » ، ومع ذلك لم يمنعه تقديره للطبرى من أن ينقده نقدا لاذعا لخطئه فى بعض أخباره ، فهو يرى أنه قد أخطأ فى الحوادث التى حدثت أيام الملك الفارسى « قباذ » ، فبعد أن نقل منه الخبر ووضعه تحت عنوان (ذكر حوادث العرب أيام قباذ) قال مخطئا الطبرى : « هذا الذى ذكره أبو جعفر من قتل قباذ بالرى وملك « تبع » البلاد من بعد قتله ، من النقل القبيح والغلط الفاحش ، وفساده أشهر من أن يذكر ، فلولا أننا شرطنا ألا نترك ترجمة من تاريخه الا وتأتى بمعناها من غير اخلال بشىء لكان الاعراض عنه أولى » ثم يذكر أخطاء أخرى للطبرى فى الخبر ذاته ويصححها ، ويعلق على كل خطأ بتعليق لاذع ، مثل قوله : « هذا مما تأباه العقول وتمجه الأسماع » و « لو فكر أبو جعفر فى ذلك لاستحيا من نقله » و « وأعجب من هذا أنه قال » ثم ينهى ابن الأثير الخبر بقوله : « وهذا القدر كاف فى كشف الخطأ فيه » .

وفى كتابه « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ينقد أصحاب مصادره الأساسية التى اعتمد عليها برغم اعجابه بهم وتقديره لعملهم وجهودهم التى بذلوها فى كتبهم ، فهو يشيد بابن منده ، وأبى نعيم ، وابن عبد البر ويدعو لهم بالخير ، « فلقد أحسنوا فيما جمعوا ، وبذلوا جهدهم » ، وبرغم هذا ، فانه ينقد ابن منده وأبا نعيم لأنهما « قد أكثرا من « الحــديث » (فى التراجم) والكلام عليها ، وذكرا عللها ، ولم يكثرا من نسب الشـخص

ولا ذكر شيء من أخباره وما يعرف به » مع أن « الأحاديث وعللها وطرقها فهو بكتب الحديث أشبه » ثم يتناولهم بالنقد فى التراجم، فابن منده يعتبر « أبانا العبدى » غير « أبانا المحاربى » ، فيقول ابن الأثير « وهو وهم منه ، فان أبانا العبدى هو المحاربى » ، ويقول ابن عبد البر : « أن جعفى بن سعد العشيرة » وفد على النبى عليه الصلاة والسلام فى وفد « جعف » ، فيقول ابن الأثير : « قلت ، وهذا أغرب ما يقوله عالم ، فان جعفى بن سعد العشيرة مات قبل النبى صلى الله عليه وسلم بدهر طويل » ؛ ويقول كل من ابن مندة وأبى نعيم أن النبى أرسل جبار بن صخر ابن أمية مع جابر عينا له على المشركين ، فيقول ابن الأثير : « وليس كذلك ، انما بعثهما ليستقيا الماء كما ذكرناه فى الحديث ، وهما أيضا ذكرا ذلك فى متن الحديث فنقضا على أنفسهما ما قالاه والله أعلم » .

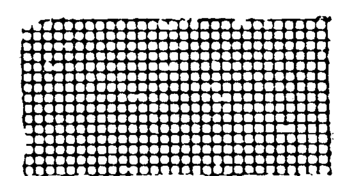
وفى كتابه « اللباب فى تهذيب الأنساب » ، امتدح السمعانى مؤلف كتاب « الأنساب » الذي هذبه ، وأبدى اعجابه به ، وقدر مجهوده العلمى ، فالسمعانى قد أتى فى كتابه « بما عجز عنه الأوائل والأواخر » ، وأن الكتاب « فرد فى فنه ، منقطع النظير فى حسنه » ، ومع ذلك ، فانه نقده فى أكثر من مناسبة ، فالسمعانى ينسب « البحرانى » الى : البحر أو الجزائر أو استدامة ركوب البحار ، أو كان ملاح سفن ، فيعتبر ابن الأثير هذا التعريف خطأ ، فيقول : « قلت : قد تعسف السمعانى فى هذه النسبة وخرج عن قاعدة النحاة ، فانهم ينسبون الى البحر : بحرى . وانما البحرانى منسوب الى البحرين » . ويخطىء السمعانى فيمن نسبته « الثورى » حيث يقول ، ان هذه النسبة الى بطن من همذان وبطن من تميم . فيصف ابن الأثير السمعانى بالخلط : « وقد خلط فى هذه الترجمة ، فما يدرى أيخثر أم يريب ، فمن تخليطه أنه جعل لتميم بطنا اسمه ثور ، وليس كذلك .. » . ومن

عباراته الناقدة للسمعانى أيضا : « وهو من الخطأ الفاحش ، فكيف خفى على مثله فى علمه ومعرفته » و « هذا كلام من لا يعرف اصطلاح القوم » و « وهو تصحيف قبيح » .

ــ تلخيص الخبر : وقد عمد ابن الأثير الى تلخيص الخبر المطول الذى ينقله من مصدره ، فيحذف منه المعلومات التى يرى أنها غير ضرورية بحسب تقديره ، ويكتفى باستخلاص المعلومات الأساسية التى يبنى عليها الخبر . وقد استعمل هذا المنهج فى مؤلفاته كلها . وقد وفق الى حد كبير فى تلخيص كثير من الأخبار ، ولكنه ــ فى الوقت نفسه ــ لم يوفق فى تلخيص بعضها أيضا ، حيث حذف منها معلومات هامة تفيد القارىء والباحث فى كل عصر فأضعف بذلك الخبر ، علاوة على أنه ترك أخبارا هامة لم ينقلها من مصادره ، وهذا التصرف من ابن الأثير قد يعزى الى ضعف قدرته على اختيار الخبر وعن فهم قيمته وفائدته ، والى ضعف ملكة التلخيص عنده ، وهذا ما ننزه عنه ابن الأثير ، وتعليلنا لهذه الظاهرة أنه لم يقم وحده بجمع الأخبار ، وانما استعان بمعاونين كلفهم بجمع بعض الأخبار من المصادر ، وفوضهم فى الاختيار والتلخيص ، فلم يحسن المعاونون عملهم ، ولذلك فنحن نرجح أن الأخبار الهامة والملخصة تلخيصا وافيا هى من عمله هو ، وأن الأخبار المتروكة والملخصة تلخيصا ناقصا هى من عمل معاونيه ، لأن الأخبار المتروكة والملخصة تلخيصا ناقصا لا يمكن أن تفوت قيمتها على ابن الأثير .

الفصل الرابع

مؤلفات ابن الأثير



وكما أن ابن الأثير مؤرخ ممتاز فانه أيضا مؤلف ممتاز ، ويشهد له منهجه فى التأليف بذلك . وقد اكتسب ابن الأثير مميزاته فى التأليف من استفادته من مناهج المؤرخين السابقين عليه ، ذلك أن ابن الأثير ظهر فى عصر ، كانت صور الكتابة التاريخية فيه قد اكتملت على أيدى مؤرخين كبار ، ونهج كل مؤرخ فى التأليف منهجا يختلف عن منهج الآخر مغايرة كبيرة أو صغيرة ، فأخذ ابن الأثير من كل منهج أحسن ما فيه ، ثم أضاف اليها من تجاربه وخبراته ، فأضاف بذلك مبادىء جديدة على ما أوجده السابقون . وتبرز ميزته كمؤلف ، أكثر ما تبرز ، فى كتابه « الكامل فى التاريخ » الذى سنعرف به بعد .

ومؤلفات ابن الأثير المعروفة كلها فى التاريخ ، وهى :

١ ـ الكامل فى التاريخ : وهو فى التاريخ العام .

٢ ـ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ، وهو فى تاريخ الدول (أو الأسر) .

٣ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة : وهو فى تراجم الصحابة .

٤ ـ اللباب فى تهذيب الأنساب : وهو فى الأنساب .

وبذلك يكون ابن الأثير قد كتب فى أربعة أنواع من الكتابة التاريخية ، وهى أنواع كانت معروفة قبل ابن الأثير . فالتاريخ العام يمثله كتاب « تاريخ الأمم والملوك » للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ؛ وتاريخ الدول (أو الأسر) يمثله كتاب « التاجى » لابراهيم بن هلال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ ، وهو فى تاريخ أسرة بنى بويه ؛ وتراجم الصحابة تمثلها الكتب الرئيسية الأربعة التى اعتمد عليها ابن الأثير فى تأليف كتابه « أسد الغابة » ؛ والأنساب يمثلها كتاب « الأنساب » للسمعانى المتوفى بسنة ٥٦٤ ، والذى هذبه ابن الأثير باسم « اللباب » . واذا كان ابن الأثير لم يأت بجديد فى نوعية الكتابة التاريخية ، فانه أتى بجديد فى الناحية الموضوعية . فكتاب « الكامل » يختلف عن كتاب الطبرى ، فى أن ابن الأثير جمع فيه أخبار العالم الاسلامى كله بأقاليمه المختلفة ، بينما أهمل الطبرى التأريخ لبعض الأقاليم فضلا عن قلة الأخبار عن كل اقليم أرخه ، وأيضا قلة المعلومات فى كثير من الأخبار . وكتاب « التاريخ الباهر » جديد أيضا فى موضوعه ، بمعنى أنه لم يسبق ابن الأثير أحد فى الكتابة عن بنى زنكى كتابة شاملة منفردة . وكتاب « أسد الغابة » يعتبر كذلك جديدا باعتبار أن ابن الأثير جمع تراجم الصحابة من أربعة كتب هامة ، وأضاف اليها ما لم تذكره هذه الكتب من التراجم وصحح ما رآه خطأ فيها . وكتاب « اللباب » يعتبر جديدا أيضا باعتبار تهذيبه من الأخطاء التى وقع فيها السمعانى فى كتابه ، وبما أضافه من نسب أخرى لم يذكرها السمعانى .

وقد نسبت كتب أخرى لابن الأثير لا علاقة لها بالتاريخ ، ثبت لدينا خطأ نسبة بعضها اليه ولم نتحقق من صحة نسبة بعضها الآخر وان كنا نرجح بطلان نسبتها اليه ، ذلك أن المؤرخين القدامى ومنهم المعاصرون لابن الأثير الذين أحصوا كتبه لم يذكروها ، وانما الذى نسبها اليه هم المؤرخون المتأخرون ، مثل : حاجى خليفة ، واسماعيل سرهنك وغيرهما .

فأما الكتب المثبوت خطأ نسبتها اليه :

- كتاب مختصر وفيات الأعيان .
- كتاب تحفة العجائب وطرفة الغرائب .
- كتاب المختار فى مناقب الأخيار .

أما الكتب المشكوك فى نسبتها الى ابن الأثير :

- كتاب آداب السياسة .
- كتاب الجامع الكبير فى علم البيان .
- كتاب الجهاد .

ونعرف بعد ذلك بكل كتاب من كتب ابن الأثير التاريخية .

أولا : اللباب فى تهـــذيب الأنساب

اهتم المسلمون القدامى بالأنساب العربية اهتماما كبيرا ، وذلك لعدة أسباب ، ذكرها مؤلفو كتب الأنساب .

ثم ظهرت كتب فى الأنساب من نوع جديد ، لا تقتصر على النسب العربى وحده ، وانما تشمل أيضا النسبة الى : الحرفة ، والعيوب الجسمية ، والمذهب ، والصناعة والبلد . والاهتمام بالنسب غير العربية يعنى ضعف اهتمام المسلمين بالنسب العربى ، ويعزو حاجى خليفة هذا الضعف الى « كثرة الشعوب غير العربية

التى دخلت فى الاسلام ، فاختلطت أنساب العرب بالأعجام ، فتعذر ضبطها بالآباء ، فانتسب كل مجهول النسب الى بلده أو حرفته أو نحو ذلك ، حتى غلب هذا النوع » . أما « روزنثال » ، فانه يعزو ضعف اهتمام المسلمين فى التأليف فى النسب العربى الى اتساع رقعة العالم الاسلامى ، وظهور المؤلفات التاريخية الواسعة ، لذلك أضبحت كتب الأنساب « أداة غير ملائمة لكتابة تاريخ المدنية الاسلامية المعقدة ، ويرجع الفضل فى اختفائها ــ بعد القرن التاسع الميلادى ــ الى البحث العلمى الاسلامى » . ويفهم من قول روزنثال ، أن المسلمين كانوا يعتمدون فى تدوين تاريخهم على كتب الأنساب حتى ما قبل القرن الثالث الهجرى ، ولكنهم وجدوا بعد ذلك ، أن هذا النوع من الكتابة التاريخية لا يصلح لتأريخ أحداث العالم الاسلامى الواسع الأرجاء ، فاستعملوا المطولات التاريخية فى التأريخ ، وأهملوا التأريخ عن طريق الأنساب .

والاهتمام بالنسب المنوعة بدأ ــ كما يبدو ــ فى أواخر القرن الخامس الهجرى أو ما قبله ، فهناك كتاب فى النسب المنوعة ، ألفه أبو الفضل محمد بن طاهر بن على بن أحمد المقدسى المعروف بابن القيسرانى المتوفى سنة ٥٠٧ ، وهو فى النسبة الى الأماكن والأجداد وغيرها ، ثم لدينا كتاب السمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ ، ولعل السمعانى تأثر بابن القيسرانى فأخرج كتابه على نسق كتابه ، وان كان فى مقدمة كتابه يذكر أن شيخه البسطامى هو الذى أشار عليه « نظم مجموع فى الأنساب ، وكل نسبة الى قبيلة أو بطن أو ولاء أو بلدة أو قرية أو جد أو حرفة أو لقب لبعض أجداده ، فان الأنساب لا تخلو عن واحد من هذه الأشياء » فشرع السمعانى فى جمعه بمدينة سمرقند سنة ٥٥٠ هـ .

ويرجع اهتمام ابن الأثير بالتأليف فى الأنساب ــ كما يقول فى مقدمة كتابه ــ الى قلة التأليف فيها حتى اندثر هذا العلم ،

برغم حاجة طالب العلم والأدب اليه ، حتى جهل الناس الأنساب ، بحيث كثيرا ما رأى « نسبا الى قبيلة ، أو بطن ، أو جد ، أو بلد ، أو صناعة ، أو مذهب أو غير ذلك ، وأكثرها مجهول عند العامة ، غير معلوم عند الخاصة ، فيقع « كثير من التصحيف ، ويكثر الغلط والتحريف » . لذلك عزم على تأليف كتاب فى الأنساب ، يجمع فيه كل هذه النسب ، فأخذ يبحث عما يفيده من مصنفات السابقين عليه ، فعثر على كتاب « الأنساب » للسمعانى (١) ، فحاز اعجابه ونال رضاه ، لأنه وجد فيه ضالته المنشودة من حيث تصنيفه وترتيبه ومادته ، فقد جمع السمعانى فيه — كما يقول ابن الأثير — الأنساب الى القبائل والبطون : كالقرشى والهاشمى ؛ والى الآباء والأجداد كالسليمانى والعاصمى ؛ والى المذاهب فى الفروع والأصول : كالشافعى والحنفى والحنبلى والأشعرى والشيعى والمعتزلى ؛ والى الأمكنة : كالبغدادى والموصلى ؛ والى الصناعات : كالخياط والكيال والقصاب والبقال ؛ وذكر أيضا الصفات والعيوب ، كالطويل والقصير ، والأعمش والضرير ؛ والألقاب : كجزرة وكيلجة . ثم يقول : « فجاء الكتاب فى غاية الملاحة ونهاية الجودة والفصاحة ، وقد أتى مصنفه بما عجز عنه الأوائل ولا يدركه الأواخر .. » ثم يقول « فلما رأيته فردا فى فنه ، منقطع القرين فى حسنه ، قلت : هذا موضع المثل ؛ أكرمت فارتبط ، وأمرعت فاختبط » ومن ثم ترك ما كان قد عزم عليه من تأليف كتاب فى الأنساب واكتفى بكتابة نسخة من كتاب السمعانى ليحتفظ به لنفسه ، ولكن حين أمعن فى مطالعته ، لاحظ فى الكتاب بعض العيوب رأى ضرورة تهذيبه منها ، ومن ثم عزم على القيام بهذا

---

(١) هو عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزى ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ .

التهذيب ، وأخرج عزمه الى حيز التنفيذ فى صورة كتابه « اللباب فى تهذيب الأنساب » .

كذلك ذكر فى مقدمة الكتاب ، منهجه فى النقل من السمعانى ، فقال : انه لم يلتزم بنص السمعانى فى الترجمة ، وانما أخذ معانى كلامه فيها ونقله لا يغير منها شيئا ، حتى انه اذا ذكر السمعانى الشيء على الشك ويعلمه ابن الأثير يقينا ، فينقله ابن الأثير على الشك ثم يراجع فيه السمعانى ؛ ويذكر السمعانى الشيء متيقنا وابن الأثير يشك فيه فينقله ابن الأثير على يقينه ؛ ويذكر السمعانى فى الترجمة انسانا غيره أولى بالذكر — وربما كان هذا الانسان معاصرا لابن الأثير — فيترك ابن الأثير ما عنده عن هذا الشخص — ويذكر ما قاله السمعانى عنه . ويصرح أيضا بأنه نقل جميع التراجم التى ذكرها السمعانى فى كتابه لم يسقط ترجمة منها(١) ، الا أنه يختصر ترجمة السمعانى المطولة ، مثال ذلك اذا ذكر السمعانى فى « النسبة » جماعة ممن ينتسبون اليها، فيقتصر ابن الأثير على ذكر شخص أو شخصين ، مثل النسبة الى « الأسدى » ، يقول ابن الأثير : « ولو أراد (السمعانى) أن يستقصى كل أسدى لاحتاج الى عدة مجلدات » ، ولأن ابن الأثير يرى « أن المقصود من النسب ليس تعداد الأشخاص انما هو معرفة ما ينسب اليه لا غير » ، فلذلك اقتصر ابن الأثير « على الشخص أو الشخصين » .

---

(١) يلاحظ أنه يسقط من النسخة المطبوعة التى اعتمدنا عليها الثلاثة عشر فصلا التى عقدها السمعانى كتمهيد لكتابه ، والفصول هى : فصل فى الحديث على تعلم الأنساب ومعرفتها ، فصل فى نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصل فى بنى هاشم ، فصل فى نسب قريش ، فصل فى نسب العرب وأصلهم ، فصل فى نسب مضر ، فصل فى العرب التى كانت باليمن ، فصل فى نسب كهلان وسبأ ، فصل فى قضاعة ، فصل فى نسب جماعة من القبائل المتفرقة وقبحها ، فصل فى معرفة العرب بالأنساب وفيه ذكر عدة نسب من القبائل .

أما عيوب السمعانى التى ذكرها ابن الأثير ومنهجه فى تصويبها ، ، نذكر بعضها :

ـ أطال السمعانى واستقصى فى التراجم حتى خرج عن حد الأنساب ، وأصبح كتابه أشبه بالتواريخ ، فجرد ابن الأثير التراجم من المعلومات ، واقتصر على اسم المنسوب وسنة مولده ووفاته ـ ان وجد ـ واسم الشيخ صاحب الترجمة والراوى عنه ان كان من العلماء .

ـ ويذكر السمعانى النسبة الى الأجداد والى الصفات والعيوب فيخلط بينها ، فحدد ابن الأثير نسبة المنسوب الى جده ، فذكر كل « زيد » منسوب الى جده « عمرو » و « خالد » الى جده « عمرو » لأن « عمرو » جد « زيد » غير «عمرو » جد « خالد » ، وكذلك فعل فى العيوب والصفات ، فان « زيد الأعمش » غير « عمرو الأعمش » ، وكذلك « زيد الطويل » غير « عمرو الطويل » .

ـ ويحدث أن يذكر السمعانى نسب المترجم الى بطن قبيلة ، ولكنه لا يصل نسب البطن الى قبيلته ، فرفع ابن الأثير النسب حتى ألحقه بالقبيلة .

ـ وفات السمعانى نسبا لم يذكرها ، فأضافها ابن الأثير وأشار الى اهمال السمعانى لها .

ـ وأخطأ السمعانى فى تسمية المكان الواحد بأكثر من اسم ، فصحح ابن الأثير أخطاءه .

ـ وأخطأ أيضا فى تعريف بعض المواضع ، مثل قوله ، ان أفريقية « بلد كبيرة معروفة من بلاد المغرب عند بلاد الأندلس » فصوب ابن الأثير خطأ السمعانى فقال : ان افريقية « اسم ولاية جميعها كالشام والعراق والجزيرة والأندلس وتحتوى على بلاد

كثيرة كانت قاعدتها وكرس مملكتها أولا القيروان .. » . وقد أبان ابن الأثير فى هذا التصويب عن معرفة جغرافية صحيحة .

مصـــادره :

وقد حرص ابن الأثير على أن يذكر أنه اعتمد عند تهذيب كتاب السمعانى على نسخة صحيحة موثوق بها منقولة عن نسخة المؤلف نفسه « وسمعها الشيوخ بقراءة العلماء » ثم استعان بمصـادر متخصصة لم يذكر منها فى المقدمة سوى هشام الكلبى ، ويقول انه اعتمد عليه أكثر من غيره « لأنه أشهر علماء النسب وأحفظهم له وأقلهم وهما » وابن الأثير يعنى أنه اعتمد على هشام فى تراجم الأشخاص حتى عصره (توفى ابن هشام سنة ٢٠٤) ، والا فان السمعانى ترجم أشخاصا معاصرين له ، بل ان السمعانى ترجم لنفسه . أما مصادر ابن الأثير الأخرى فقد ذكرها خلال التراجم، ولكنه لم يسمها بأسمائها ، وانما ذكرها باسم الشهرة لمؤلفيها ، فيما عدا « الحميدى » فانه ذكر اسم كتابه « تاريخ الأندلس » وابن عساكر وذكر اسم كتابه « تاريخ دمشق » ، وأما غيرهما فقد رجع الى كل من : خليفة بن خياط (توفى سنة ٢٤٠ هـ) وأبى عبيد القاسم بن سلام البغدادى (توفى سنة ٢٢٤ هـ) وابن ماكولا (توفى سنة ٤٨٧ هـ) والدار قطنى (توفى سنة ٣٨٥ هـ) ومؤرج السدوسى (توفى سنة ٣٨٤ هـ) . وابن حبيب (توفى سنة ٣٤٥ هـ) وأبى عبيدة معمر بن المثنى (توفى سنة ٢١٠ هـ) وغـيرهم .

تقييم الكتاب :

وقد حظى الكتاب باهتمام القدامى من المتخصصين فتناولوه بالمدح والنقد ، فممن نوه به ومدحه ، القاضى ابن خلكان ــ فى كتابه وفيات الأعيان ــ ، فقال فى ترجمته لابن الأثير : « واختصر كتاب الأنساب لأبى سعد عبد الكريم السمعانى واستدرك عليه

فى مواضع ونبه على أغلاط ، وزاد أشياء أهملها . وهو كتاب مفيد جدا ، وأكثر ما يوجد اليوم بأيدى الناس هذا المختصر ، وهو فى ثلاث مجلدات — والأصل فى ثمان وهو عزيز الوجود ، ولم أره سوى مرة واحدة بمدينة حلب — ولم يصل الى الديار المصرية سوى المختصر المذكور » .

وقد استفاد ابن حجر من الكتاب فى بعض مؤلفاته ، وقد ذكره فى ثبت مراجعه المسمى « المعجم المفهرس » — فى الباب الثالث منه فى « فنون الحديث » — فقال : انه رجع الى « الأنساب ، لأبى الحسن بن الأثير ، وهو مختصر كتاب السمعانى وزاد عليه » .

أما السيوطى ، فقد تناول الكتاب بالنقد ، ووجه اليه مآخذ دعته الى تنقيحه وتهذيبه واخراجه فى كتاب جديد من عمله سماه « لب اللباب فى تحرير الأنساب » . وقد ذكر السيوطى فى مقدمة كتابه المآخذ التى أخذها على ابن الأثير ، فقال : « هذا ما اشتدت اليه حاجة المحدث اللبيب من مختصر فى الأنساب ، واف بالمقصود كاف عن التطلاب ، خال عن التطويل مما يخرج عن ذا الباب ، نقحت فيه « اللباب » لابن الأثير ، واستوفيت ضبط ألفاظه مع مزيد عليه كثير ، وتتبعت فيه أشياء أهملها ، واستدركت ألفاظا أغفلها » . وهكذا نرى أن مآخذ السيوطى على الكتاب ، هى بعض مآخذ ابن الأثير على السمعانى . وقد اقتصر السيوطى فى تهذيبه ، على ذكر النسبة وتعريفها ، دون أن يذكر أحدا من المشهورين بها ، مثال ذلك ، ذكر من نسبيته « الطهرانى » هكذا : (الطهرانى : بالكسر والسكون والراء ، نسبة الى طهران ، قرية بأصبهان وبالرى أيضا) . بينما ذكر ابن الأثير هذه النسبة وعرفها ، وذكر بعض المشهورين بها . والنسب التى زادها السيوطى على ابن الأثير كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ، النسبة الى سلوق ، فقال : (السلوقى : الى سلوق . قرية باليمن ، اليها الدروع والكلاب) .

كذلك لخص القاضى قطب الدين محمد بن محمد الحيضرى الشافعى المتوفى سنة ٨٩٤ ، كتاب « الأنساب » للسمعانى ، وضم اليه ما عند ابن الأثير والرشاطى وغيرهما من الزيادات وسماه « الاكتساب » .

ونحن نرى ، أن كلا من السمعانى وابن الأثير خرج عن موضوع الكتاب ما دام الغرض من التأليف فى الأنساب المنوعة ، هو التعريف بالنسبة فقط . أما اخراجهما الكتابين بصورتهما الحالية ، فانهما لم يزيدا على هذا الغرض من ناحية ، وليس فيهما الفائدة التامة من ناحية أخرى ، لأن ذكر شخص أو شخصين لكل نسبة ليس كافيا ، لأنه توجد عشرات الشخصيات المشهورة التى تحمل نفس النسبة ، وكان الأوقع أن يقتصرا على التعريف بالنسبة كما فعل السيوطى ، وكان الأجدر بابن الأثير أن يتبع هذا المنهج ، وخاصة أنه يتفق مفهومه ومفهوم السيوطى ، وقد حدد ابن الأثير مفهومه فى اعتراضه على السمعانى اطالته فى الترجمة ، فقال : « ان الغرض ليس تعداد الأشخاص ، وانما هو معرفة ما ينسب اليه لا غير » .

أما اذا عقدنا مقارنة تفصيل بين كتابى السمعانى وابن الأثير ، من حيث الفائدة للمهتمين بتراجم الأشخاص من الباحثين المحدثين ، فلا شك فى أن كتاب السمعانى يفضل كتاب ابن الأثير من حيث وفرة المادة الخبرية التى غذى بها السمعانى تراجمه ، والتى تمد الباحث بالمعلومات التى يهمه أن يجدها أينما وجدت وفى أى كتاب كانت ، مثل ترجمته لنظام الملك ، وزير السلطان ملكشاه والسلجوقى ، فقد ذكر أصله ونشأته وتقلبه فى الوظائف حتى دخل فى خدمة ملكشاه وأصبح وزيرا له ؛ بينما جرد ابن الأثير الشخصيات من المعلومات ، واقتصر على اسم الشخص وبعض من روى عنهم ورووا عنه وسنة وفاته ، دون ذكر أية معلومات

عنه ، ومع ذلك فان قيمة كتاب ابن الأثير ترجع الى النسب التى أضافها الى نسب السمعانى ، والى تصويب أخطائه .

وهناك ملاحظة جديرة بالتسجيل ، وهى ، أن فى نهاية النسخة المطبوعة لكتاب « اللباب » والتى استعملناها فى هذه الدراسة ، ما نصه من كلام ابن الأثير : « .. وهذا ما أردنا تهذيبه من كتاب النسب ، وقد أتينا على آخره حسبما شرطنا ، وكنت عازما على استقصاء ما فاته ، فاتفق أن الكتاب نسخ وسار فى البلاد . فلم أرد أن أفسده ، فاقتصرت على هذا القدر . ثم ان فسح الله فى العمر ، ووفق للعمل ، أجمع كتابا ذيلا عليه وأضيف اليه من الأنساب ما حدث بعده ، وأجعله كتابا منفردا ان شاء الله تعالى » . ومعنى هذا ، أن هذه الاشارة كتبها ابن الأثير على نسخته الخاصة بعد أن انتشر كتابه بين أيدى الناس ، وعلى ذلك ، فان هذه الاشارة لا توجد الا فى نسخة ابن الأثير الخاصة ، وأن كل نسخة عليها هذه الاشارة انما تكون منقولة عن نسخته .

ثانيا : أسد الغابة فى معرفة الصحابة

والصحابة هم الذين أسلموا ــ رجالا ونساء ــ فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، على اختلاف بين القدامى فى التعريف المحدد للصحابى ، أى فيمن يطلق عليه اسم الصحبة .

وقد اهتم المسلمون بالتأليف للصحابة منذ عهد مبكر ، وكان المفسرون والمحدثون هم أول من اهتموا بسيرهم باعتبارهم أول رواة حديث النبى ، والمصدر الأول لأحداث عصر الرسول ومن ثم كان الاهتمام فى التأليف فى تراجمهم ، ثم انضاف سبب آخر بعد ذلك للاستمرار فى التأليف عنهم ، هو اعتبار سيرهم سبل هداية يجب أن يقتدى بهم المسلمون .

وتراجم الصحابة ضرورية للمهتمين بدراسة الصدر الأول

من التاريخ الاسلامى من المحدثين باعتبارهم المصدر الأول لأحداث هذه الفترة ، ولأن سيرتهم مادة دسمة للتاريخ نفتقدها فى كتب التاريخ العام وغيره من التواريخ ، ذلك لأن سيرة الصحابى — وهى حياته الخاصة والعامة — تشتمل على معلومات هامة عن الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى شارك فيها ، وهذه المعلومات تفتقدها كتب التاريخ الأخرى كالتاريخ العام بسبب المنهج الذى يلتزمه المؤرخ وهو الايجاز فى السرد وتجنب التفاصيل الكثيرة ، فاذا تعرض المؤرخ للصحابة فى كتابه ، فانه يقتصر على الصحابى الذى شارك فى السرايا والغزوات مع النبى فيذكر دوره فيها ، أما حياته الخاصة فلا يعنى بها ، برغم ما فيها من معلومات هامة تفيد فى النواحى التى أشرنا اليها . أما مؤلف تراجم الصحابة ، فانه يعنى بالصحابة جميعا سواء الذين اشتركوا فى السرايا والغزوات مع النبى صلى الله عليه وسلم أو لم يشتركوا فيها ، فمن سير الصحابة تتجمع أخبار العصر الذى عاشوا فيه " وهكذا تسد مؤلفات تراجم الصحابة النقص الذى يشوب كتب التاريخ الأخرى ومنها كتب التاريخ العام . ودليل هذا ما نجده فى كثير من التراجم ، ومنها — على سبيل المثال — ترجمة خديجة بنت الزبير بن العوام — فلم ترد الترجمة الا فى كتب تراجم الصحابة — فقد جاء فى كتاب الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر قصة عن أمها أسماء بنت أبى بكر . قالت أسماء : « كنت مرة فى أرض أقطعها النبى صلى الله عليه وسلم ، ولنا جار من اليهود ، فذبح شاة فطبخت ، فوجدت ريحها فدخلنى ما لم يدخلنى شىء قط — وأنا حامل بابنتى خديجة — فلم أصبر ، فانطلقت فدخلت على امرأة اليهودى أقتبس منها نارا لعلها تطعمنى — وما بى حاجة الى النار — فلما شممت الريح ورأيته ازددت شرها ، فأطفأته (أى أطفأت النار) ثم جئت ثانيا أقتبس ثم ثالثة ، ثم قعدت أبكى وأدعو الله ، فجاء زوج اليهودية فقال

(لزوجته) : أدخل عليكم أحد ؟ قالت ، العربية تقتبس نارا . قال : فلا آكل منها أبدا أو ترسلى اليها منها ، فأرسل الى بقدحة ــ يعنى غرفة ــ فلم يكن شيء فى الأرض أعجب الى من تلك الأكلة » . فهذه القصة تعطينا فكرة واضحة عن المجتمع الاسلامى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعلاقة طوائفه المختلفة بعضها ببعض ، وكيف كان حسن الجوار سائدا بين المسلمين واليهود برغم الصراع الخفى والظاهر الدائر بينهم .

ومثال آخر يوضح لنا ما كان عليه المجتمع الاسلامى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم حيث يترجم ابن حجر أيضا لزينب الأنصارية المغنية فيذكر فى ترجمتها أن أحد الأنصار تزوج احدى قريبات السيدة عائشة ، فأهدتها السيدة عائشة قباء ، فسألها النبى صلى الله عليه وسلم : « أهديت عروسك ؟ » قالت : نعم . قال : « فأرسلت معها بغناء فأن الأنصار يحبونه ؟ » قالت : لا . قال : « فأدركيها بزينب » ، وزينب امرأة كانت تغنى بالمدينة .

ومثال ثالث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى ترجمة الزبير بن العوام ، فقد جاء فى ترجمته فى « أسد الغابة » ، انه « كان للزبير ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، فما يدخل الى بيته منها درهما واحدا ، كان يتصدق بذلك كله » . وجاء فى ترجمته فى كتاب « الاستيعاب » : « وكان الزبير تاجرا مجدودا فى التجارة . وقيل له يوما : بم أدركت فى التجارة ما أدركت ؟ فقال : لأنى لم أشتر غبنا ، ولم أرد ربحا ، والله يبارك لمن يشاء » . فما ذكره ابن الأثير عن الزبير يصور التكافل الاجتماعى والموازنة

بين الغنى والفقر فى العصر الاسلامى المبكر ، وما ذكره ابن عبد البر يصـور النشاط الاقتصادى والحركة التجارية لنفس العصر ، بالاضافة الى الدرس الأخلاقى الذى يقدمه الزبير للأغنياء من المسلمين ببر الفقراء ، وللتجار المسلمين باتباع الأمانة فى تجارتهم بيعا وشراء ، ونخرج من هذه الأمثلة ، بأن كتب تراجم الصحابة لا يمكن الاستغناء عنها لدارسى الصدر الأول للاسلام من جوانبه المختلفة .

ضرورة معرفة المسلمين للصحابة :

ويرى ابن الأثير أن معرفة الصحابة ضرورية للمسلمين ، لأن « معرفتهم ومعرفة أمورهم وأحوالهم وأنسابهم وسيرتهم مهم فى الدين » ، لأن « السنة التى عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام الى غير ذلك من أمور الدين ، انما ثبتت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها ، وأولهم والمقدم عليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا جهلهم الانسان كان بغيرهم أشد جهلا وأعظم انكارا ، فينبغى أن يعرفوا بأنسابهم وأحوالهم هم وغيرهم من الرواة ، حتى يصح العمل بما رواه الثقات منهم ، وتقوم به الحجة ، فان المجهول لا تصح روايته ، ولا ينبغى العمل بما رواه » . فالضرورة عند ابن الأثير ، ضرورة تحتاج اليها طبقة خاصة من الناس ، هم المفسرون والمحدثون ليطمئنوا على صحة الرواية أو الحديث الذى يكون مصدرها الصحابى ، وهذه الضرورة ـ كما سبق أن قلنا ـ احتاج لها المفسرون والمحدثون الأوائل ، فابن الأثير ظل يحصر الضرورة فى هذا النطاق برغم ظهور مؤلفات كثيرة قبله ، عرفت المفسرين والمحدثين بالصحابة تعريفا واسعا ، وقد تنبه لهذا مؤلفو تراجم ظهروا قبل ابن الأثير، فوجهوا اهتمامهم للتأليف فى تراجم الصحابة باعتبار سيرهم مثلا طيبـة يجب أن يقتدى بها المسـلمون ، ومن هؤلاء المؤلفين

ـ على سبيل المثال ـ ابن عبد البر القرطبى ـ صاحب كتاب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، وكتابه أحد مصادر ابن الأثير الرئيسية ـ حيث يقول : « ونحن ـ وان كان الصحابة رضى الله عنهم قد كفينا البحث عن أحوالهم لاجماع أهـــل الحق من المسلمين ، وهم أهل السنة والجماعة على أنهم كلهم عدول ـ فواجب الوقوف على أسمائهم والبحث عن سيرهم وأحوالهم ليهتدى بهديهم ، فهم خير من سلك سبيلهم ، واقتدى بهم » . فالهدف من معرفة الصحابة عند ابن عبد البر ، أوقع من هدف ابن الأثير من حيث الفائدة العامة من معرفتهم .

تعريف ابن الأثير للصحابى :

وقد اختلف المؤرخون القدامى فى تعريف الصـــحابى ، فسعيد بن المسيب يقول : ان الصحابى ، هو الذى « أقام مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة أو سنتين ، وغزا معه غـــزوة أو غزوتين » ؛ والواقدى يعرفه بأنه « كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار ، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم فى الاسلام » ؛ أما الامام ابن حنبل ، فانه يقول : ان الصحابى هو « كل من صحبه شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه » ؛ وأما الصحابى عند البخارى ، هو « من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من الصحابة » ؛ وأما عند الغزالى ، فهو « من حيث الوضع ، الصحبة ولو ساعة ، ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته » ؛ وبهذا التعريف تقريبا يأخذ ابن الأثير الذى يرى أن الصحابى هو الذى كان وثيق الصلة بالنبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول بعد أن اســـتعرض التعاريف السابقة : « قلت : وأصحاب رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم — على ما شرطوه كثيرون ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد حنينا ومعه اثنا عشر ألفا سوى الأتباع والنساء، وجاء اليه هوازن مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم ، وترك مكة مملوءة ناسا وكذلك المدينة أيضا ، وكل من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين ، فهؤلاء كلهم لهم صحبة ، وقد شهد معه « تبوك » من الخلق الكثير ما لا يحصيهم ديوان ، وكذلك حجة الوداع وكلهم له صحبة ولم يذكروا (أى مؤلفو التراجم) الا هذا القدر ، مع أن كثيرا منهم ليست لهم صحبة ، وقد ذكر الشخص الواحد فى عدة تراجم ولكنهم معذورون ، فان لم يرو ولا يأتى ذكره فى رواية ، كيف السبيل الى معرفته ؟ » . فالصحابى عند ابن الأثير ، هو الذى صحب النبى صلى الله عليه وسلم مدة طويلة ، سواء غزا معه أو لم يغز ، أو روى عنه أو لم يرو .

كذلك يستنكر ابن الأثير صحبة المرتد ، وهو يعترض على مؤلفى التراجم اعتبارهم « اكيدر بن عبد الله » من الصحابة برغم انهم يقولون ، انه أسلم ثم ارتد ، فيقول ابن الأثير : « والا فيذكر كل من أسلم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد » .

كذلك يرفض اعتبار (الجن المسلمين) من الصحابة ، وقد سبب انكاره صحبة الجن نقدا عليه من ابن حجر العسقلانى كما سيأتى .

سبب تأليف الكتاب :

وسبب تأليف الكتاب — كما يقول ابن الأثير — ان كثيرا من الناس قد جمعوا فى أسماء الصحابة كتبا كثيرة ، وأن منهم من ذكر كثيرا من أسمائهم فى كتب الأنساب والمغازى وغيرها ، وأن كلا منهم « اختلف مقصده من ذكرهم عن الآخر » ولكنه ميز منها خمسة كتب — لم يسمها وانما سمى أصحابها — وهم :

الحافظ أبو عبد الله محمد بن مندة الأصفهانى ، والامام أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبى ، والحافظ أبو موسى محمد بن أبى بكر ابن أبى عيسى الأصفهانى ، وأبو الحسين بن محمد الجيانى الغسانى . وقد شاد ابن الأثير بابن مندة وأبى نعيم وابن عبد البر اشادة خاصة ودعا لهم بالخير ، فلقد أحسنوا فيما جمعوا ، وبذلوا جهدهم » ولكن برغم هذا الاعجاب الخاص بهم وتنويهه بالآخرين ، فانه وجد فى كتبهم جميعا مآخذ ، فقد رأى أن ابن مندة وأبا نعيم وأبا موسى « عندهم أسماء ليست عند ابن عبد البر ، وعند ابن عبر البر أسماء ليست عندهم » ، كذلك رأى أن ابن مندة وأبا نعيم « قد أكثرا من الأحاديث والكلام عليها ، وذكرا عللها ولم يكثرا من ذكر نسب الشخص ولا ذكر شيء من أخباره وما يعرف به » مع أن الأحاديث وعللها وطرقها « فهو بكتب الحديث أشبه » لذلك عزم على تأليف كتاب فى تراجم الصحابة ، يجمع فيه تراجم الكتب الخمسة على أن يجرد تراجم ابن مندة وأبى نعيم مما فيها من الأحاديث الكثيرة ، ولكنه توقف عما عزم عليه لأن « كانت العوائق تمنع ، والأعذار تصد عنه .. فلم يتيسر ذلك لصراع الدنيا وشواغلها » . هذا ما كان من أمر عزمه على تأليف الكتاب ثم توقفه عن تأليفه . أما عن الظروف التى اضطرته الى تأليفه بعد ذلك ، فانه يقول ، انه فى احدى سفرياته الى الشام لزيارة بيت المقدس — ولم يذكر متى كان ذلك — اجتمع عليه « جماعة من أعيان المحدثين ، وممن يعتنى بالحفظ والاتقان » وقالوا له : « اننا نرى كثيرا من العلماء الذين جمعوا أسماء الصحابة يختلفون فى النسب والصحبة والمشاهد التى شهدها الصاحب ، الى غير ذلك من أحوال الشخص ولا نعرف الحق فيه » ثم حثوا عزمه على جمع كتاب لهم فى أسماء الصحابة ، يستقصى فيه ما وصل اليه من أسمائهم ويبين الحق فيما اختلف فيه المؤرخون السابقون عليه ، ولكنه اعتذر لهم

ـ كما يقول ـ « بتعذر وصولى الى كتبى وأصولى ، واننى بعيد الدار عنها ولا أرى النقل الا منها » ولكنهم ألحوا عليه فى الطلب فاستجاب لهم ، وأخذ يجمع مادة الكتاب من جماعة كانوا قد سمعوا عليه فى الموصل ثم ساروا الى الشام ، يقول : « واتفق أن جماعة كانوا قد سمعوا على أشياء بالموصل وساروا الى الشام فنقلت منها أحاديث مسندة وغير ذلك » ثم يقول : « ثم اننى عدت الى الوطن بعد الفراغ منه ، وأردت أن أذكر الأسانيد وأخرج الأحاديث التى فيه بأسانيدها ، فرأيت ذلك متعبا ، احتاج أن أنقض كل ما جمعت ، فحملنى الكسل وحب الدعة والميل الى الراحة الى أن نقلت ما تدعو الضرورة اليه ، مما لا يخل بترتيب ولا يكثر الى حد الاضجار والاملال » . ومبالغة ابن الأثير فى تأليف كتابه فى الشام ممن سمع عليه فقط واضحة ، لأن نقاله ممن سمع عليه ـ مهما كان كثيرا ـ لا يكفى لجمع مادة كتاب ضخم ، ويؤكد المبالغة المصادر المنوعة التى رجع اليها والتى ذكرها فى كل ترجمـــة ، واننا نرى أن ابن الأثير كان قد بدأ فى تاليف الكتاب فى الموصل وجمع أكثر مادته قبل سفره الى الشام ، ثم حمله معه عندما سافر اليها لكى يستكمله أو يراجع ما جمعه فأهمله ، فلما طلب منه أصحابه تأليف كتاب فى تراجم الصحابة تحمس لاخراجه . وقد أراد ابن الأثير بما ذكره من ظروف اخراج الكتاب تزكية نفسه ، أسوة بالسابقين عليه ، فكثير من العلماء ، ومنهم المؤرخون ، يصطنعون نفس السبب الذى ذكره ابن الأثير فى مصنفاتهم ، نذكر منهم على سبيل المثال : الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ صاحب كتاب « جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » ، فانه يذكر فى مقدمة الكتاب ، أنه ألفه فى بغداد ـ فى احدى زياراته لها ـ بطلب من أصحابه ، بالرغم من بعده عن كتبه ومصادره . ويبدو أن انتحال هذا السبب أصبح تقليدا جاريا عند العلماء لا يجدون فيه غضاضة .

مصادره :

والكتب الخمسة التى اعتمد عليها أساسا ، هى :

١ ــ كتاب معرفة الصحابة عليهم السلام : لابن منـــدة الأصفهانى .

٢ ــ كتاب معرفة الصحابة : لأبى نعيم الأصفهانى .

٣ ــ كتاب معرفة الاستيعاب فى معرفة الأصـــحاب : لابن عبد البر القرطبى .

٤ ــ كتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل فى رجال الصحيحين : لأبى على الغسانى .

٥ ــ أما كتاب أبى موسى فلم نقف على اسمه ، وهو ذيل على كتاب ابن مندة ، كما يذكر حاجى خليفة . أما مصادره المساعدة فقد زادت على ثلاثين كتابا ، منها ما ذكره فى فصل خاص ، ومنها ما ذكره فى التراجم ، وهى فى التفسير ، والحديث ، والطبقات ، والتاريخ ، واللغة ، والأنساب ، والفتوح (١) ، فممن ذكرهم من مصادره ، فى التراجم : البلاذرى ، وهشام الكلبى ، وابن الدباغ الأندلسى ، والعدوى ، وابن ماكولا ، والمدائنى ، وأبو أحمد العسكرى ، وأبو القاسم بن عساكر ، والدار قطنى ، وعبد الغنى ، والطبرى ، والقاضى أبو أحمد ، وسيف (كتـــاب الفتوح) والأثيرى ، كما رجع الى كتابه « الكامل فى التاريخ » . كذلك استعمل سماعاته من شيوخه ، وقد استعمل المصادر المساعدة ،

---

(١) جمع ابن الأثير ، كتب التفسير والحديث فى فصل خاص ، وأما المصادر التى ذكرها فى التراجم ، فقدَ ذكر أســـماء مؤلفيهـــا فقط ، ومنهم النسابون كالبلاذرى ، والمترجمون كابن عساكر ، واللغويون كابن ماكولا .

لتصحيح أخطاء مصادره الرئيسية ولاضافة معلومات جديدة على معلوماتهم فى الترجمة التى ينقلها عنهم كذلك ، ولاضافة تراجم كاملة لم يذكروها . وتدل هذه المصادر الكثيرة المنوعة التى رجع اليها ابن الأثير على حرصه على اخراج كتاب فى تراجم الصحابة يفوق ما سبقه من الكتب ، من حيث الدقة ، ومن حيث استكمال التراجم .

منهجه فى النقل :

وقد حدد ابن الأثير منهجه فى النقل من مصادره الرئيسية فى مقدمة كتابه ، فقال : انه نقل جميع التراجم الموجودة فيها ، فيما عدا التراجم المكررة فى كل كتاب ، فلم يترك ترجمة منها ، حتى الترجمة المغلوطة فانه ينقلها ثم يصحح خطأها ، قال : « ولم أخل بترجمة واحدة من كتبهم جميعا ، بل أذكر الجميع حتى انى أخرج الغلط كما ذكره المخرج له وأبين الحق والصواب فيه ان علمته ، الا أن يكون أحدهم قد أعاد الترجمة بعينها فأتركها وأذكر ترجمة واحدة » . كذلك حذف بعض الأحاديث « والكلام عليها وعللها » من التراجم التى نقلها من ابن مندة وأبى نعيم . وأما الترجمة ذاتها فانه يكونها من المعلومات الواردة فى مصادره ، يأخذ من كل مصدر المعلومات التى لا توجد فى غيره ، ويؤلف منها الترجمة ، ليس هذا فقط وانما يضيف اليها أيضا معلومات أخرى من المصادر المساعدة ، وهكذا يخرج الترجمة وافية المعلومات .

مميزات ابن الأثير :

وقد عمل ابن الأثير على تيسير القراءة لقراء كتابه ، وذلك بأنه :

ـ رتب التراجم على حروف الهجائية ، وبذلك يسهل على القارىء أو الباحث استخراج اسم الشخص بحسب الحرف الهجائى الذى يبدأ به اسمه .

ـ وضبط بالحروف الأسماء المتشابهة فى الرسم المختلفة فى النطق لئلا تلتبس على القارىء ، فمثلا ، الاسم « سليمة » ـ فى الأنصار ـ (بكسر اللام) ، والنسبة اليه « سلمى » (بفتح اللام والسين) .

ـ وشرح الألفاظ الصعبة التى ترد فى بعض التراجم ، مثال ذلك ، ما ورد فى ترجمة « حذيفة بن اليمان » ، أن حذيفة قال : « حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام نومة فتقبض الأمانة فيظل أثرها من أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفطت فتراه منبترا وليس فيه شىء .. » وفى نهاية الترجمة ، شرح ابن الأثير الألفاظ الغريبة الواردة فيها ، هكذا :

الجذر : الأصل . وجذر كل شىء أصله (وتفتح الجيم وتكسر) .

المجل : يقال : مجلت يده تمجل مجلا ، ومجلت تمجل مجلا ، اذا سخن جلدها وتعجر حتى يظل أثرها مثل المجل .

المنبتر المنتفط : المرتفع ، وكل شىء رفع شيئا فقد نبره .

الوكت : الأثر اليسير ، وجمعه : وكت (بالتحريك) . وقيل للبسر اذا وقعت فيه نكتة من الارطاب فقد وكت (بالتشديد) .

وشرح ابن الأثير للألفاظ الصعبة الواردة فى الأحاديث لفتة صائبة منه ، حيث ييسر الشرح للقارئ فهم الحديث ، وقد غاب عن مؤلفى مصادر ابن الأثير الرئيسية ما تنبه هو اليه .

تصويبه أخطاء مصادره :

وقد قام ابن الأثير بتصحيح الأخطاء التى رأى أن مصادره الرئيسية قد وقعت فيها ، وطريقته فى التصويب أنه يذكر الخطأ كما جاء فى المصدر ثم يصححه ، وقد ذكرنا بعض الأمثلة لتصويباته فى حديثنا عن نقده لأصحاب مصادره .

بعض المآخذ :

وبرغم مميزات ابن الأثير وجهوده فى اخراج الكتاب اخراجا طيبا ، فان هناك بعض المآخذ التى لا يخلو منها أى كتاب قديم ، نذكر أهمها :

ـ يؤخذ على ابن الأثير أنه اقتفى أثر مصادره : ابن مندة ، وأبى نعيم ، وأبى موسى ، فنقل منهم الأشخاص الذين روى كل منهم عن أبيه وعن أخيه وجده وخاله وعمه ، وان كان الراوى ومن يروى عنهم مجهولين ، مثل : (رجل من بلى عن أبيه ، قال : ..) و (رجل من أهل الشام عن أبيه ، قال : ..) ثم يذكر الحديث الذى رواه الرجل الذى من بلى والرجل الذى من الشام ، دون أن يذكر شيئا عن الرجلين ، وابن الأثير يختلف فى هذا مع نفسه حيث يقول ان الغرض من الترجمة هو معرفة الصحابى راوى الحديث للاطمئنان على صحة الحديث .

ـ ومما يؤخذ عليه أيضا ، أنه ذكر فى مقدمة كتابه ، انه اذا كرر أحد مصادره الرئيسية ترجمة الشخص ، فانه ينقل ترجمة واحدة ، وينبه الى أنه قد أخرجها فلان فى موضوعين من كتابه ،

واذا كان ابن الأثير قد أسقط التكرار للترجمة ، الا أنه فعل ما يشبه التكرار أيضا ، ذلك أنه ترجم بعض الأشخاص مرتين ، مرة باسمه ومرة أخرى بكنيته فى فصل « الكنى » ، ويذكر فى كل ترجمة معلومات لا توجد فى الترجمة الأخرى . مثال ذلك ترجمته من اسمه « جندب بن جناده بن سفيان » وهو أبو ذر الغفارى الصحابى المشهور ، فترجمه ابن الأثير باسمه ترجمة طويلة ، ثم قال فى نهايتها « وسنذكر باقى أخباره فى الكنى ان شاء الله تعالى » ، وقد ذكر ابن الأثير فعلا ترجمة أخرى لأبى ذر فى فصل « الكنى » ، وفى كل من الترجمتين معلومات لا توجد فى الأخرى ، وكان الأجدر به أن يجمع الترجمتين فى ترجمة واحدة باسمه كاملا ، ثم يذكره فى فصل « الكنى » ويشير الى أنه ترجمه باسمه كاملا فى حرف (الجيم) .

مكانة الكتاب عند المؤرخين القدامى :

وقد استقبل المؤرخون القدامى الكتاب بين المدح والنقد . فقال ابن خلكان فى ترجمته لابن الأثير : « وله كتاب أخبار الصحابة — رضوان الله عليهم — فى ست مجلدات كبار » . وقال ابن العماد الحنبلى فى « شذرات الذهب » أن ابن الأثير « صنف كتابا حافلا فى معرفة الصحابة ، جمع فيه كتاب ابن مندة ، وكتاب أبى نعيم ، وكتاب ابن عبد البر ، وكتاب أبى موسى ، وزاد وأفاد ، وسماه أسد الغابة فى معرفة الصحابة » . وأما الذهبى ، فانه برغم اعجابه بالكتاب ، الا أنه وجد فيه اطالة فاختصره وأخرجه فى كتاب سماه « تجريد أسماء الصحابة » ، وقال فى مقدمته : « وبعد ؛ فهذا تجريد أسماء الصحابة ، مختصر أسد الغابة الذى صنفه العلامة عز الدين أبو الحسن على بن أثير الدين محمد بن محمد ابن عبد الكريم الجزرى — رحمه الله ورضى عنه — فانه كتاب نفيس مستقصى لأسماء الصحابة — رضى الله عنهم — الذين ذكروا فى

الكتب الأربعة المصنفة فى معرفة الصحابة : كتاب أبى عبد الله بن مندة ، وكتاب أبى نعيم ، وكتاب أبى موسى الأصبهانيين - وهو ذيل على كتاب ابن مندة - وكتاب أبى عمر بن عبد البر ، وما زاده أيضا المصنف عز الدين » . وقد جرد الذهبى تراجم ابن الأثير من المعلومات ، وان كان أضاف شخصيات أخرى لم يذكرها ابن الأثير ، الا أن كتاب ابن الأثير يفضل كتاب الذهبى وأكثر منه فائدة للباحث والقارىء ، لتغذية ابن الأثير الشخصيات بالمعلومات المفيـــدة .

وأما ابن حجر العسقلانى ، فبالرغم من أنه استعان بكتاب ابن الأثير عند تأليف كتابه « الاصابة فى تمييز الصحابة » ، فانه جرحه وجرح كتابه فى مقدمة كتابه - فى معرض ذكره أسماء من الف فى تراجم الصحابة قبله حتى وصل الى ابن الأثير ، فقال : « .. الى أن كان فى أوائل القرن السابع ، فجمع عز الدين بن الأثير كتابا حافلا سماه « أسد الغابة » وجمع فيه كثيرا من التصانيف المتقدمة ، الا أنه تبع من قبله ، فخلط من ليس صحابيا بهم ، وأغفل كثيرا من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة فى كتبهم » . كذلك أخذ عليه انكاره صحبة الجن ، كما أخذ عليه الأخطاء التى وقع فيها فى بعض التراجم ، فقد أنكر على ابن الأثير اعتباره « أزهر بن قيس » صحابيا ، فقال ابن حجر : « وهو وهم لم يتنبه له أحد فيما علمت » . وأنكر عليه أيضا اعتباره « الجحاف بن حكيم بن عاصم » صحابيا ، فقال : « وقد وجدت لابن الأثير سلفا ، لكن تولى رده من هو أعلم منه » . وعن انكار ابن الأثير صحبة الجن ، يقول ابن حجر فى نهاية ترجمته لزوبعة الجنى ، « ولا معنى لانكاره (ابن الأثير) لأنهم (الجن) مكلفون ، وقد أرسل اليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فآمن منهم به من آمن ، فمن عرف اسمه ولقبه للنبى صلى الله عليه وسلم فهو

صحابى لا محالة . وأما قوله ، كان الأولى أن يذكر جبرائيل ، ففيه نظر ، لأن الخلاف فى أن النبى صلى الله عليه وسلم هل أرسل الى الملائكة مشهور بخلاف الجن والله أعلم » .

أما الأخطاء الأخرى التى أخذها ابن حجر على ابن الأثير ، منها ، ما ذكره فى ترجمة « بشر بن عاصم بن عبد الله » ، فيقول « وفى كلام ابن الأثير ما ينافى ذلك ، وخطؤه فيه يظهر بالتأمل فيما حررته والله المرشد » . ويعتبر ابن الأثير « حنظلة بن قيس الحنفى اليمامى » من الأنصار فينكر عليه ابن حجر ذلك ويقول : انه « وهم من ابن الأثير » . ويذكر ابن الأثير أيضا «حنبل بن خارجة» فيقول ابن حجر ، ان ابن الأثير « صحف الاسم تصحيفا قبيحا »، وانما هو « حسل » (بكسر المهملتين) . ولكن الحق ، أن ابن حجر لم يغمط حق ابن الأثير فى بعض تصـــويباته ، وقد أشـــار فى أكثر من ترجمة الى صوابها ، من ذلك ما ذكره فى ترجمة « الحجاج ابن قيس بن عدى السهمى » فقال : « فرق ابن مندة بينه وبين الحجاج بن الحارث بن قيس ، وهو هو ، سقط ذكر أبيه من بعض الروايات ، ونبه عليه ابن الأثير » . وما ذكره أيضا فى ترجمة « خالد بن نافع الخزاعى » ، فقال : « ذكره أبو عمر مفرقا بينه وبين خالد الخزاعى المتقدم ذكره فوهم ، نبه عليه ابن الأثير » . وممن نقل من كتاب ابن الأثير أيضا ، محيى الدين بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وقد ذكره كمصدر له فى مقدمة كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » .

ثالثا : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (١)

والمقصود بالدولة الأتابكية ، الدولة التى أسسها عماد الدين زنكى فى الموصل سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧م) وهى الدولة التى عاش

---

(١) انظر ما يلى ، التعريف بكتاب الكامل فى التاريخ .

ابن الأثير وأسرته فى ظلها كما سبق أن ذكرنا . ولفظ الأتابكية ، نسبة الى اللقب التركى « أتابك » (ومعناه الوالد الكبير) الذى أطلق على عماد الدين بعد أن ولى امرة الموصل .

فالكتاب اذن فى تاريخ الدول أو الأسر ، والدولة الزنكية ــ أو الأتابكية كما يسميها ابن الأثير ــ احدى الأسر الحاكمة فى الاسلام التى ظهرت فى العصر العباسى (١) . وتاريخ الأسر لا يقل أهمية عن التاريخ العام ، بل انه يمتاز عنه فى تخصصه الموضوعى، هذا التخصص الذى يتيح الفرصة للمؤلف لكى يتوسع فى أخبار الأسرة الحاكمة العامة والخاصة ، كما يتيح له الاكثار من تفاصيل الخبر والحادث بحيث تكون أكثر وضوحا مما هى فى كتاب فى التاريخ العام ، كذلك يتيح له عرض شخصيات الأسرة من حيث حياتها الخاصة والعامة بأوسع مما يتيح له التاريخ العام ، ومقارنة بسيطة بين تاريخ أسرة حاكمة فى كتاب فى التاريخ العام وتاريخها فى كتاب خاص ، يتبين الفرق بين التاريخين ، حيث نجد فى التاريخ العام أخبارا موجزة تنصب كلها تقريبا على الناحيتين السياسية والحربية ، بينما نجد فى تاريخ الأسرة أخبارا منوعة ومفصلة تفصيلا واسعا ، عن الحالة الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية فضلا عن الناحيتين السياسية والحربية. ولدينا الدليل على ذلك ، فقد أرخ ابن الأثير الأسرة فى كتابه هذا « التاريخ الباهر » وأرخها أيضا فى كتابه الكبير « الكامل فى التاريخ » ــ وهو فى التاريخ العام ــ فاذا ما قابلنا ــ مثلا ــ ما ذكره ابن الأثير عن جهود عماد الدين زنكى فى تأسيس دولته فى الموصل فى « الباهر » وما ذكره فى « الكامل » ، وكذلك ما ذكره عن سياسة نور الدين محمود العامة ، يظهر الفارق الكبير بين الكتابين من

---

(١) حقق المؤلف الكتاب ، ونشر فى سنة ١٩٦٢ .

حيث اتساع المادة الخبرية فى الكتاب الأول ، وقلتها فى الكتاب الثـــانى .

واذا كان لتاريخ الدول – أو الأسر – هذه الميزات ، فان له مساوىء خطيرة حين ينحرف المؤرخ عن الأمانة الواجبـــة فى التأريخ ، سواء كان الانحراف بضغط خارجى عليه ، كما حدث لابراهيم بن هلال الصابى ، الذى كلف من الملك عضد الدولة البويهى ، أن يؤلف له كتاب « التاجى » فى أسرته البويهية ، فاضطر تحت تأثير عضد الدولة أن يحرف الأخبار (١) ، أو كان الانحراف من المؤرخ نفسه مجاملة منه للأسرة كما فعل ابن الأثير فى كتابه « التاريخ الباهر » – كما سيأتى – ففى الحالتين يضطر المؤلف الى الانحراف ، الأمر الذى يسبب مشقة كبيرة للباحث الحديث للوصول الى الحقيقة .

سبب تأليفه الكتاب :

وقد ذكر ابن الأثير فى مقدمة الكتـــاب سبب تأليفــه له ، فقال ، انه ألفه لاظهار الدور العظيم الذى أداه الزنكيون فى المجال الصليبى وفى السياسة الداخلية ، وذلك وفاء منه لهم ، ولكى تكون سيرتهم دستورا يهتدى به الملك القاهر مسعود الذى خلف أباه على ملك الموصل سنة ٦٠٧ ، فيســير على نهج أسلافه فى عدالة الحكم وحسنه . غير أننا نرجح ، أن الدافع لتأليفه الكتاب ، هو وفاة ملك الموصل نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ ، الذى كان أكثر ملوك الموصل برا به وبأسرته

---

(١) يروى أن أحد أصحاب الصابى سأله عما يفعل – وكان عاكفا على تأليف الكتاب – فقال : « أباطيل أنمقهـــا وأكاذيب ألفقهـــا » ، وقد بلغت كلمته عضد الدولة ، فغضب عليه حتى كاد أن يهلكه . (شذرات الذهب : ١٠٦/٣ – ترجمة الصابى سنة ٣٨٤) .

وعطفا عليهم ، وولاية ابنه الشاب القاهر مسعود برعاية بدر الدين لؤلؤ ، ويبدو أن علاقة ابن الأثير بالملك الشاب وبراعيه لم تكن وثيقة الأمر الذى يهدد مكانته بالبلاط الموصلى ، فعـــزم على استمرار مكانته فى البلاط وتوثيقها ، فرأى أن خير وسيلة لذلك، هو أن يؤلف كتابا عن أسرة الملك القاهر ويقدمه له ، وأن ينوه به وبراعيه ، ويشيد بهما ، فألف الكتاب فى سنة ٦٠٨ ، أى بعــد اعتلاء الملك القاهر ملك الموصل بسنة واحدة ، واقتصر فيه على تسجيل محاسن أسلافه والأخبار الطيبـــة عنهم . وقد نجح ابن الأثير فى استمرار علاقته بالبلاط وتوثيقها ، فقربه بدر الدين لؤلؤ اليه ، وجعله من رواد مجالسه ، وبخاصة فى شهر رمضان كما سبق أن ذكرنا . وحرص ابن الأثير على استمرار علاقته بالبلاط الموصلى لا يتعارض وكراهيته للوظائف الحكومية فان الغرض الذى كان يهدف اليه من علاقته بالبلاط هو الاحتفاظ بمكانته الأدبية فيه ، أسوة بالعلماء المقربين الى البلاط .

موضوع الكتاب :

ويتضمن الكتاب ، تاريخ ملوك الموصل منــــذ أن أسس عماد الدين دولته فى سنة ٥٢١ حتى سنة ٦٠٧ ، وهى السنة التى توفى فيها الملك نور الدين أرسلان شاه ، وخلفه بعده ابنه الملك القاهر مسعود .

وقد قدم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصـــل ، ولخص فيها جهادهم الصليبيين وأشـــاد بعدالتهم فى حكمهم ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب .

ثم بدأ بسرد أخبار قسيم الدولة آقســـنقر الحاجب ـ والد عماد الدين زنكى ـ فذكر صلته بالسلطان السلوقى فى ملــكشاه ، وولايته على حلب من قبله ، واشتراكه فى مشـــاكل الأسرة

السلجوقية بسبب التنافس على السلطنة بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ ، ثم ذكر مقتل قسيم الدولة فى سنة ٤٨٧ فى حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تتش السلجوقى صاحب دمشق ، وختم ابن الأثير أخبار الدولة بترجمة له ، ذكر فيها حسن سياسته وعدالة حكمه .

ثم تناول بعد ذلك أخبار عماد الدين زنكى — الابن الوحيد لقسيم الدولة — منذ مقتل والده حتى وفاته سنة ٥٤١ ، فذكر رعاية أصحاب أبيه له ونشأته تحت رعايتهم ، فقد كان عماد الدين فى نحو العاشرة من عمره حين توفى أبوه ، ثم استقلاله بنفسه بعد أن اشتد ساعده ، والتحاقه بجيوش أمراء الموصل واشتراكه معه فى حروبهم المحلية وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم انتقاله الى خدمة السلطان محمود السلجوقى ، وولايته شحنكية (محافظة) واسط والبصرة وبغداد . ثم بعد ذلك ولايته على الموصل سنة ٥٢١ ، وهنا يأخذ ابن الأثير فى سرد الخطوات التى اتبعها عماد الدين لتكوين دولة تحمل اسمه ، تضم بعض امارات الجزيرة والشام . كذلك ذكر الأخبار التى تشير الى الصعوبات التى صادفته أثناء تكوين دولته ، التى تتمثل فى الخليفة العباسى ، والسلطان السلجوقى ، وأمراء الجزيرة والشام المسلمين ثم الصليبيين وكيف تغلب عليها . وقد أفاض ابن الأثير فى سرد حروب عماد الدين ضد الصليبيين وجهوده فى استرداد كثير من البلاد التى استولوا عليها ، سواء فى الجزيرة أو فى الشام .

ثم تناول ابن الأثير ، انقسام الدولة بعد وفاة عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل والجزيرة ، ونور الدين محمود الذى استقل بحلب وتوابعها بالشام . فدون أخبار سيف الدين ، وكان عهده قصيرا (٥٤١ — ٥٤٤ هـ) ، ومن أبرز أعماله ، أنه تحاشى وقوع خلاف خطير بينه وبين

أخيه نور الدين ، كذلك حافظ على أملاك الدولة بالجزيرة من الطامعين بها من أمرائها ، ثم كان له أثر فى منع سقوط دمشق فى يد امبـــراطور الروم الذى حاصرها مع الصــــليبيين فى سنة ٥٤٣ .

ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود ، الذى خلف أخاه سيف الدين على الموصل (٥٤٤ ـ ٥٦٥ هـ) فذكر الخلاف الذى حدث بينه وبين أخيه نور الدين بسبب مدينة سنجار والذى انتهى بالصلح بينهما . ثم ذكر مشروع سلطنة سليمان شاه السلجوقى على همذان وتعيين قطب الدين أتابكا (مدبرا) له لادارة سلطنته وفشل المشروع ، كذلك سرد أخبار النزاع على ملك الموصل بين ولدى قطب الدين أثناء مرضه ، وأثر نفوذ رجال الدولة فى هذا النزاع ، الذى انتهى بملك ابنه سيف الدين غازى (الثانى) .

كذلك تناول أخبـــار نور الدين محمود (٥٤١ ـ ٥٦٩) ، فذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه ، وجهاده للصليبيين ، واسترداده بعض البلاد منهم ، كذلك ذكر استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٩ ، وعلى مصر سنة ٥٦٤ ، وعلى الموصل سنة ٥٦٦ . كذلك تحدث عن الخلاف الذى حدث بين نور الدين وصلاح الدين الأيوبى ، بعد أن حل صلاح الدين محل عمه أسد الدين شيركوه فى مصر .

كذلك ذكر أزمة الاستخلاف التى حدثت فى البيت الزنكى بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ ، بسبب صغر سن الصالح اسماعيل ، الابن الوحيـــد لنور الدين ، والتى آلت الدولة بسببها الى صلاح الدين ، ما عدا الموصل وســنجار وجزيرة ابن عمر .

وفى الفترة ما بين سنتى ٥٦٩ و ٦٠٧ ، أرخ ابن الأثير ملوك الموصل تأريخا مختصرا لاقتصار أخبارهم على الأخبار المحلية ، ذكر فيه أخبار سيف الدين غازى (الثانى) ابن قطب الدين مودود الذى استمر حكمه حتى سنة ٥٧٦ هـ ؛ وأخبار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذى خلف أخاه سيف الدين حتى سنة ٥٨٩ ، وكذلك أخبار نور الدين ارسلان شاه بن عز الدين مسعود ودام حكمه الى سنة ٦٠٧ ، فدون أخبارا قليلة عن علاقاتهم بصلاح الدين وخلفائه ، وكانت علاقات تتأرجح بين الود والخصومة ، ثم ذكر ملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ ، دون أن يذكر أخبارا عنه . وختم ابن الأثير أخبار كل ملك بترجمة له ، وصف فيها أخلاقه ومآثره ، وذكر ما أفادته الموصل فى عهده . كذلك ترجم لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد ، وأبرز فى هذه التراجم ، أثر بعضهم فى نشأة الدولة وارتقائها ، وأثر بعضهم الآخر فى اضعافها .

وقد تجنب ابن الأثير التوسع فى أخبار الصراع بين الزنكيين — خلفاء نور الدين — وبين صلاح الدين وخلفائه ، وسبب ذلك أن أخبار الصراع ، تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم فى حروبهم معهم ، كذلك تثبت أخبار الصراع خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعا تاما ، فتجنب ابن الأثير اثبات هذه الأخبار التى تجرح أصحابها ، لئلا يخدش كبرياء الملك القاهر الذى ألف له الكتاب ، ولكنه فى الوقت نفسه ، أحال القارىء أكثر من مرة الى كتابه الآخر « الكامل فى التاريخ » للاستزادة من الأخبار والتفاصيل ، حيث دونها بحرية تامة .

كذلك خرج فى بعض الحوادث عن مبدأ الحيدة الذى اتبعه فى كتابه « الكامل » ، ففى هذا الكتاب فسر هذه الحوادث من واقعها وعلى وجهها الصحيح ، بينما فسرها فى « الباهر »

تفسيرا مخالفا ارضاء للملك القاهر ، مثال ذلك ، خبر حصار عز الدين مسعود — جد الملك القاهر — جزيرة ابن عمر ، وخبر حصار الملك العادل الأيوبى مدينة سنجار سنة ٦٠٦ .

كذلك ضغط بعض الأخبار ضغطا كبيرا ، وبخاصة تلك التى تجرح عماد الدين زنكى ، فحذف منها الأخبار التى تدينه ، مثل خبر استيلائه على حماه سنة ٥٢٣ ، وعلى بعلبك سنة ٥٣٤ ، بينما ذكرها فى « الكامل » كاملة مفصلة . ومع ذلك يلاحظ أن ابن الأثير لم يستطع التغلب على طبيعته الناقدة ، فتناول بعض ملوك الموصل بالنقد ، مثال ذلك نقده المشوب بالتأنيب لعز الدين مسعود لقبضه على نائبه مجاهد الدين قايماز ، وما تسبب عنه من أضرار على الدولة ، فقد عصى كثير من نوابه فى البلاد التابعة للموصل عليه استضعافا له — وكانوا يخشون مجاهد الدين لقوته وحزمه — ، فقال : « وعلى الحقيقة ، فليس على الدولة شىء أضر من ازالة بيشكار (وزير) مدبر لها واقامة غيره ، فان الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه . ويكون الثانى — وان كان كافيا — بمنزلة الطبيب الذى لا يعرف مزاج الانسان وما يوافقه ويؤذيه ، فالى أن يعرف حالته ينفسد أكثر مما ينصلح » . فهذا النقد القاسى يدل على رغبة ابن الأثير فى نقد ملوك الموصل ، ولكن الغرض الذى هدف اليه من تأليف الكتاب حال بينه وبين الانطلاق فى النقد .

والجدير بالذكر أن ابن الأثير قد ذكر فى كتابه هذا معلومات قيمة لم يذكرها فى « الكامل » ، مثل المعلومات عن مصير عماد الدين بعد مقتل والده وتنقله فى خدمة أمراء الموصـــل واشتراكه معهم فى حروبه منذ صغره ، ومن ذلك عرفنا سر نجاحه الحربى والمدنى ، كذلك أمدنا بمعلومات عن كيفية نجاحه فى تكوين دولته وسياسته الحازمة فى حكمه .

كذلك فى الكتاب معلومات قيمة عن حياة نور الدين الخاصة والعامة لم يذكرها فى « الكامل » بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة المعالم للباحث والدارس الحديث .

كذلك تخللت تراجم الزنكيين وكبار رجال دولتهم ، معلومات عن النظم الزنكية ، وعن جهودهم فى تحسين أحوال الموصل الداخلية ، فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

كذلك أبدع فى وصفه المعارك التى دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين ، وفى ابراز الجهود الضخمة التى كان يبذلها كل من الزنكيين والصليبيين من حيث الاستعداد للعمليات الحربية ، واستماتة المسلمين والصليبيين فى القتال . ونورد هنا نماذج لبعض الأخبار التى ذكرها عن عماد الدين ونور الدين ، بعد الاشارة الى مصادره .

مصادره :

وقد ذكر ابن الأثير فى مقدمة كتابه أنه اعتمد فى جمع الأخبار على ما كان قد سمعه من والده ، ولم يكن يدون ما يسمعه فى حينه ، غير أنه فى الواقع رجع الى مصادر كثيرة ، هى نفس مصادره عن الزنكيين فى كتابه « الكامل » ، وذلك أن ابن الأثير عندما بدأ يجمع مادته التاريخية ، ومنها أخبار الزنكيين ليخرجها فى كتاب ، لم يكن يتوقع أنه سيخرج كتاب « التاريخ الباهر » ، فلما جاءته المناسبة لاخراج كتابه هذا ، جمع أخبار الزنكيين من المادة المجموعة عنده ، ومن المصادر التى رجع اليها وذكرها فى « الباهر » تاريخ دمشق لابن عساكر ، وأخبارحلب لابن العديم ، و «البرق الشامى» للعماد الكاتب ، كذلك نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة .

مكانة الكتاب عند القدامى :

وقد لقى الكتاب ترحيبا كبيرا من المؤرخين القدامى ، فقد نقل منه واعتمد عليه كثيرون . نذكر منهم على سبيل المثال : أبو شامة فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ؛ وابن واصل فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ؛ وابن قاضى شهبة فى كتابه « الكواكب الدرية فى السيرة النورية » ؛ وسبط ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » ؛ وابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » .

نمـــاذج

– يصف ابن الأثير الوضع الاسلامى الصليبى فى الشــــام والجزيرة فى سنة ٥٢١ هـ والتحول الذى أجراه عماد الدين زنكى لما ولى امرة الموصل فى تلك السنة ، وذلك تحت عنوان :

(ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكى الموصل)

« نبتدىء قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التى كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتســـعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صـــولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت الى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف أهلها من كف عاديتهم ، وتتـــابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين ســـوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار فى البلاد شرر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدرة ، وسماء عزهم منفطرة ، وشمس اقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الاســـلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الايمان منصورة .

« وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق . وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين . وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم فى ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكنى القبور . وانقطعت الطريق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ...

« فلما نظر الله تعالى الى ملوك البلاد الاسلامية ، وأمراء الملة الحنيفية ، وما هم فيه من العجز عن نصرة الدين ، والوهن فى حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، ارتاح (؟) للاسلام وأهله ، وأنف لهم من اذلال عدوهم لهم وأسره وقتله ، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بسوء أفعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصلبان رجوما منه تهلكها وتفنيها ، فنظر فى جريدة شجعان أوليائه ، وذوى الرأى والنجدة والشهامة من أصفيائه ، فلم ير فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زنكى ولا أثبت جنانا ، ولا أمضى عزما ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ... فغزا الفرنج فى عقر ديارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم ، فأصبحت أهلة الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون فى حلل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بما أسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية

والشامية جرانه ، وبث فيهـــا أنصاره وأعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصارى ولا وزر ، فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا » .

(ذكر بعض سيرة الملك الشهيد ـ عماد الدين ـ رضى الله عنه)

« كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزما وضـــبطا للأمور ، كانت رعيتـــه فى أمن شامل لعجز القوى عن التعدى على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وانصافه وشجاعته وغير ذلك ، ما يعلم به محـــله من العقل ، وحسن قيـــامه بأمر الملك واضطلاعه به ... » .

« فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجرى لأصحابها حتى فى خلواتهم ، ولا سيما دركاه (بلاط) السلاطين ، وكان يخسر على ذلك المال الجزيل ، وكان يطالع ويكتب اليه بكل ما يفعله السلطان فى ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك ، فـــكان يصل اليه فى كل يوم من عيـــونه عدة قاصدين » .

* * *

« ومن جملة رأيه الحسن ، أنه كان يتعهد أصحابه (موظفيه) ويمتحنهم ، فلا يرفع أحدا فوق قدره الذى يستحقه ولا يضعه دونه ، ويثق الى أحدهم على قدر ما يعلم منه ... » .

* * *

« ومن آرائه : أنه كان لا يمكن أحدا من خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : ان البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج

يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العـــدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها ...» .

* * *

« وكان ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجمل ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والدى (أى والد المؤرخ) : كان الانسان اذا قدم عسكره لم يكن غريبا ، فان كان جنديا اشتمل عليه الأجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج اليه لكثرة أموالهم ؛ وان كان القادم صاحب ديوان ، قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ، ونظرهم فى مصالحه ما يكون كأنه فى أهله ، وان كان عالما ، فيقصد خيام القضاة بنى الشهرزورى وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون اليه ، ويؤنسون غربته فيعود أهلا ؛ وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوى الهمم العـــالية ، والآراء الصائبة ، والأنفس الأبية ، ويوسع عليهم فى أرزاقهم ، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف » .

ومن أخبار نور الدين بن عماد الدين ، ما ذكره تحت عنوان :

(فى ذكر بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضى الله عنه)

« قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمربن عبد العزيز ، ملكا احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعـــدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعـــام يسديه ، وقد تقدم من أحواله فى مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا ؛ ونحن نذكر ههنا ما تعلم به محله فى أمر دنياه وأخراه ، فلو كان فى أمة لافتخرت به ، فكيف فى بيت واحد ؟ » .

« فأما زهده وعبادته وعلمه ، فانه كان مع سعة ملـــكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما لا يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده الى غيره البتة، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعى ، وكان الناس عنده فيه سواء».

* * *

« ومن عدله ـ قدس الله روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ـ أنه لم يكن يعاقب العقوبة التى جرت بها عادة الملوك فى هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد فى غير ولايته مع شـــدة السياسة والمبالغة فى العقوبة والأخذ بالظنـــة وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر » .

* * *

« وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية اليه فيهما ، فانه كان أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل فى ذلك . سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون : انهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل » .

* * *

« ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده ، فانه كان اذا توفى أحدهم وخلف ولدا ، أقر اقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيرا استبد

بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق اليه فيتولى أمره الى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : هـــذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها ، وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب • وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فاذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملى العدد والعدد ، دخل الوهن على الاسلام ، ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل ، فلقد رأينا ما خافه عيانا » •

(وأما ما فعله من المصالح)

« الذى فعله من المصالح فى بلاد الاسلام مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم •• » •

* * *

« وبنى أيضا الخانات فى الطرق ، فأمن النـــاس ، وحفظت أموالهم ، وباتوا فى الشتاء فى كن من البرد والمطر » •

* * *

« وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمناه » •

* * *

« وبنى أيضا فى كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة • وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن • ووقف على الأيتام الذين يقرؤون

بها القرآن . وهذا فعل لم يسبق اليه . بلغنى من عارف بأعمال الشام ، أن وقوف نور الدين فى وقتنا هذا ــ وهو سنة ثمان وستمائة ــ كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعى ظاهرا وباطنا » .

ــ ومن أخبار حروب نور الدين مع الصليبيين :

(فى ذكر حصر نور الدين قلعة حارم)

« فى هذه السنة (سنة ٥٥١) سار الملك العادل نور الدين محمود الى قلعة حارم ، وهى للفرنج ثم لبيمند صاحب أنطاكيـــة فحصرها . وهذا الحصن غربى حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها ، وهى من أمنع الحصون وأحصنها فى نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج ــ من قرب منها ومن بعد ــ وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون الى قوله ، فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم ، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء ، وقال لهم : ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وان حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه ، ففعلوا ما أمرهم به وأشار عليهم ، وراســـلوا نور الدين فى الصلح على أن يعطوه حصة من أعمال حارم ، فأبى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية ، فأجابوه الى ذلك ، فصالحهم وعاد » . ثم يذكر ابن الأثير ، شعرا مدح به بعض الشعراء نور الدين لهذه المناسبة .

(ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله)

« فى سنة احدى وستين وخمسمائة ، سار نور الدين الى حصن المنيطرة ــ وهو أيضا للفرنج ــ ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، انما

سار اليه على غرة من الفرنج ، وعلم أنه ان جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار الى المنيطرة وحصرها ، وجد فى قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها ، وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها ، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون . ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه الا وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة (١) لأسرعوا اليه ، انما لم يظنوا الا أنه فى جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه » .

رابعا : الكامل فى التاريخ

يعتبر ابن الأثير - حقيقة - فى مقدمة مؤرخى العالم الاسلامى ، مشرقه ومغربه وما بينهما ، ويمتاز عمن سبقه من مشهورى المؤرخين السابقين عليه ، كالطبرى ، ومسكويه ، وابن الجوزى ، فالطبرى ، بالرغم من أنه سبق ابن الأثير فى التأريخ للعالم الاسلامى ، الا أنه أغفل تأريخ بعض المناطق والأقاليم ، وأخبار عن بعض المناطق التى أرخها قليلة التفاصيل كأخباره عند الهند والسند والأندلس ؛ وأما مسكويه وابن الجوزى ، فالبرغم من أنهما أرخا للعالم الاسلامى أيضا ، الا أن تاريخهما أضيق بكثير من تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ويكاد كل منهما يحصر تاريخه بأخبار المشرق ، أما أخبارهما عن المغرب - افريقية والأندلس - وما بين المغرب والمشرق - كالشام ومصر - فانها قليلة جدا . أما « تاريخ الدول المنقطعة » لابن ظافر الأزدى - وهو شبيه بتاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومؤلفه معاصر لابن الأثير حيث توفى سنة ٦٢٣ - فانه لا يصل بحال الى مرتبة تاريخ ابن الأثير بالرغم من أنه فى التاريخ الاسلامى العام . وقد رتب

---

(١) الجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها . (محيط المحيط) .

ابن ظافر تاريخه ترتيبا دوليا ، والقطعة الموجودة منه (١) ، تشمل أخبار الدول : الحمدانية بحلب ، والساجية بالجبال ، والطولونية بمصر والشام ، والأخشيدية بمصر والشام أيضا ، والعلوية بأفريقية ، والصنهاجية بأفريقية والأندلس ، والعباسية حتى ولاية الخليفة الناصر لدين الله الخلافة سنة ٥٧٥ ، الا أن أخباره عن كل دولة قليلة جدا ، والأخبار ذاتها قليلة التفاصيل الى حد كبير ، والواقع أنه لا وجه للمقارنة بين أخبار ابن ظافر وأخبار ابن الأثير الذى أرخ للعالم الاسلامى كله ، وأخباره عن كل اقليم كثيرة ، وتفاصيلها مشبعة الى حد لا بأس به .

واذا نحن ارتفعنا بابن الأثير الى هذه المرتبة الممتازة ، فاننا لا نعنى أنه استوفى تأريخه للعالم الاسلامى استيفاء كاملا من حيث الأخبار وتفاصيلها ، وانما نرتفع به مقارنة بغيره من مؤرخى العالم الاسلامى ، فان عليه مآخذ مثل ضغطه بعض الأخبار التى نقلها من مصادره للفترة التى لم يعاصرها ضغطا مخلا ، كذلك أهمل نقل بعض الأخبار الهامة منها ، ولكنه ، برغم هذه المآخذ ، فهو المؤرخ المتفوق على غيره من المؤرخين بلا جدال .

وقد عقد ابن الأثير مقدمة لكتابه ، ذكر فيها : سبب تأليفه الكتاب ، وموضوعه ، ومصادره ، ومنهجه فى التأليف ، وعنوان الكتاب ، ورده على من يحتقر التواريخ ويزدريها .

سبب تأليف الكتاب :

فأما سبب تأليفه الكتاب ، فهو حبه للتاريخ : « .. فانى لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثرا الاطلاع على الجلى من حوادثها وخافيها ، مائلا الى المعارف والآداب والتجارب المودعة

---

(١) مصور : بدار الكتب ، رقم ٨٩٠ تاريخ .

فى مطاويها » ثم انه بعد ما اطلع على كتب التواريخ ، وجد فيها عيوبا أربعة :

أولها : وجد منها المطول الممل والمختصر المخل « فلما تأملتها رأيتها متباينة فى تحصيل الغرض ، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل الى العرض ، فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات ، ومختصر قد أخل بما هو آت » .

وثانيها : أن المؤرخين الذين قرأ لهم قد شغلوا كتبهم بصغائر الأمور دون الأحداث الهامة ، « ومع ذلك ، فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات ، والمشهور من الكائنات ، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التى الاعراض عنها أولى ، وترك تسطيرها أحرى ، كقولهم : خلع فلان الذمى صاحب العيار ، وزاد رطلا فى الأسعار ، وأكرم فلان وأهين فلان » .

وثالثها : « قد أرخ كل منهم الى زمانه ، وجاء بعده من ذيل عليه ، وأضاف المتجددات بعد تاريخه اليه » .

ورابعها : أن المؤرخ الشرقى افتقر على التأريخ للمشرق . والغربى اقتصر على التأريخ للمغرب ، « والشرقى منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربى قد أهمل أحوال الشرق » . ثم يقول ، « فكان الطالب اذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج الى مجلدات كثيرة وكتب متعددة ، مع ما فيها من الاخلال والاملال » لذلك رأى ابن الأثير ، أن يجمع التاريخ الاسلامى كله ، المتفرق فى الكتب العديدة فى كتاب واحد ، « فلما رأيت الأمر كذلك ، شرعت فى تأليف جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، ليكون تذكرة لى أراجعه خوف النسيان ، وآتى فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان ، متتابعة يتلو بعضها بعضا الى وقتنا هذا » .

وقد أحسن ابن الأثير بما ذكره عن نفسه من حبه للتاريخ ، فمنه عرفنا سبب تخصصه فيه ؛ ولكنه لم يحسن فى تعريضه بتواريخ من سبقه ، فانه قد غالى فى التهوين من شأنها ، ولو أنه اكتفى بالقول بأنه أراد أن يجمع أخبار العالم الاسلامى المتفرقة فى الكتب لكان السبب مقبولا ، أما أنه يستهين بأعمال استفاد هو منها كل الفائدة ، فهذا ما يعاتب عليه ، وهو على كل حال قد نقض على نفسه عندماذكر مصادره فقال ، انه اعتمد علىالطبرى أساسا ،ثم قال : « فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها ، وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه»وبعد أن يمدح الطبرى مرة أخرى يقول : « على أنى لم أنقل الا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ، من يعلم بصدقهم فيما نقلوه ،وصحة ما دونوه» ،بالاضافة الى أنهأشار فى متن الكتاب، الى بعض المصادر التى رجع اليها اشارة خاصة ، ونبه الى السنة التى انتهى بها كل مصدر ، فقد ذكر فى سنة ٣٦٣ ، أن فى هذه السنة إنتهى كتاب ثابت بن سنان ؛ وذكر فى سنة ٣٦٩ ، أن فى هذه السنة انتهى كتاب ابن مسكويه ؛ وذكر فى سنة ٣٨٩ ، أن فى هذه السنة انتهى كتاب الوزير أبى شجاع ، فضلا عن المصادر الأخرى التى استعان بها بعد سنة ٣٨٩ ، سواء تلك التى ذكرها فى ثنايا أخباره أو التى لم يذكرها ٠ ولا ندرى لماذا حاد عن انصافه للمؤرخين السابقين عليه فى هذا الكتاب بينما أنصفهم وأشاد بهم فى كتابيه « أسد الغابة » و « اللباب » ، فانه أشاد بمصادره الرئيسية فى « أسد الغابة » وقدر جهود مؤلفيها ، ثم أشار الى عيوبها التى دعته الى تأليف الكتاب ، كذلك أشاد فى « اللباب » بكتاب « الأنساب » ومؤلفه ثم ذكر عيوب الكتاب التى دفعته الى تهذيبه ٠ وقد أشرنا الى ذلك فى تعريفنا بالكتابين ٠

ومؤاخذة ابن الأثير ، المؤرخين المشرقيين والمغربيين ، لاقتصار كل منهم على التأريخ لناحيته ، مؤاخذة لها اعتبارها ، لأنهفى الحقيقة

لم يظهر – سواء فى المشرق أو المغرب – مؤرخ عالمى بعد الطبرى. ولهذا فنحن نرجح أن هذا السبب هو الذى حمس ابن الأثير الى تأليف كتاب يجمع فيه أخبار العالم الاسلامى مشرقه ومغربه وما بينهما – على حد تعبيره – ويمكن اضافة سبب آخر الى هذا السبب وهو أن ابن الأثير وجد أن الطبرى نفسه لم يؤرخ للعالم الاسلامي حتى عصره ، تاريخا شاملا ، فأراد أن يستكمل تاريخه ثم يصله الى عصره .

منهجه :

وقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الاسلامى على السنين وقد أشار الى منهجه فى تدوين الخبر ، فقال : « ورأيتهم (أصحاب مصادره) يذكرون الحادثة الواحدة فى سنين ، ويذكرون منها فى كل شهر أشياء ، فتأتى الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم الا بعد امعان النظر ، فجمعت أنا الحادثة فى موضع واحد ، وذكرت كل شيء منها فى أى شهر أو سنة كانت ، فأتت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب بعض .

« وذكرت فى كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها . فأما الحوادث الصغار التى لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فاننى أفردت لجميعها ترجمة واحدة فى آخر كل سنة فأقول (ذكر عدة حوادث) .

« واذا ذكرت بعض من تبع وملك فى قطر من البلاد ولم تطل أيامه ، فانى أذكر جميع حاله من أوله الى آخره عند ابتداء أمره ، لأنه اذا تفرق خبره لم يعرف للجهل به .

« وذكرت فى آخر كل سنة من توفى فيها من مشهورى العلماء والأعيان والفضلاء .

« وضبطت الأسماء المشتبهة المؤتلفة فى الخط المختلفة فى اللفظ الواردة فيه بالحروف ضبطا يزيل الأشكال ، ويغنى عن الانقاط والأشكال » .

وقد التزم ابن الأثير بهذا المنهج ، فيما عدا الحالة الأولى ، فانه لم يلتزمها دائما ، مثل ثورة الزنج التى استمرت أربع عشرة سنة ، فانه ذكرها مقطعة على السنين كما ذكرها مصدره الطبرى ، ولكنه عمد فى الحادثة التى تستمر سنة واحدة ، وذكرها مصدره مقطعة على الشهور ، عمد الى جمعها فى سياق واحد ، مثال ذلك ، حادث اغارة « حباسة » على مصر فى سنة ٣٠٢ ، الذى نقله من الطبرى ، فقد ذكره الطبرى مقطعا على ست مراحل ، ودون كل مرحلة فى الشهر الذى وقعت فيه ، وأدخل بين كل مرحلة وأخرى أخبارا غريبة عن الحادث ، ولتقريب المثال ، نورد الحادث كما دونه الطبرى مقطعا ، والحادث نفسه كما دونه ابن الأثير متسقا :

خبر الطبرى : « وفيها دخل حباسة صاحب ابن البصرى الاسكندرية وغلب عليها ، وذكر أنه وردها فى مائتى مركب فى البحر .

« وفيها ، وافى حباسة صاحب ابن البصرى موضعا من فسطاط مصر ، على مرحلة يقال لها « سفط » ثم رجع منه الى وراء ذلك ، فنزل منزلا بين الفسطاط والاسكندرية .

« وفيها شخص مؤنس الخادم الى مصر لحرب حباسة ، وقوى بالرجال والسلاح والمال .

« وفيها كانت وقعة بمصر بين أصحاب السلطان وحباسة لست بقين من جمادى الأولى منها ، فقتل من الفريقين جماعة ، وجرحت منهم جماعة ؛ ثم أخرى بعد ذلك بيوم نحو التى كانت فى هذه ؛ ثم ثالثة بعد ذلك فى جمادى الآخرة منها . ولأربع عشرة بقيت من جمادى

الآخرة منها ، ورد كتاب بوقعة كانت بينهم ، هزم أصحاب السلطان فيها المغاربة ·

« ولاحدى عشرة بقيت من رجب ، ورد الخبر من مصر أن أصحاب السلطان لقوا حباسة وأهل المغرب يقاتلونهم ، فكانت الهزيمة على المغاربة فقتلوا منهم وأسروا سبعة آلاف رجل وهرب الباقون مغلوبين · وكانت الوقعة يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة ·

« وفيها انصرف حباسة ومن معه من المغاربة عن الاسكندرية راجعين الى المغرب بعدما ناظر — فيما ذكر — حباسة عامل السلطان بمصر على الدخول اليه بالأمان وجرت بينهما فى ذلك كتب · وكان انصرافه — فيما ذكر — لاختلاف حدث بين أصحابه فى الموضع الذى شخص منه » ·

خبر ابن الأثير : « وفيها ، أنفذ أبو محمد عبد الله العلوى الملقب بالمهدى ، جيشا من افريقية مع قائد من قواده يقال له « حباسة » الى الاسكندرية ، فغلب عليها ؛ وكان مسيره فى البحر ، ثم سار منها الى مصر ، فنزل بين مصر والاسكندرية ، فبلغ ذلك المقتدر، فأرسل مؤنسا الخادم فى عسكر الى مصر لمحاربة حباسة وأمده بالسلاح والمال ، فسار اليها ، فالتقى العسكران فى جمادى الأولى فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل من الفريقين جمع كثير وجرح مثلهم؛ ثم كان بينهم وقعة أخرى بنحوها ، فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف مع الأسرى وهرب الباقون ، وكانت هذه الوقعة سلخ جمادى الآخرة ، وعادوا الى المغرب · فلما وصلوا الى المغرب ، قتل المهدى حباسة » · وهكذا صاغ ابن الأثير حادث الطبرى المقطع فى صيغة واحدة ، فأصبح الخبر سياقا واحدا مقبولا لدى القارىء ؛ ثم نلاحظ أن ابن الأثير أهمل بعض المعلومات من خبر الطبرى وزاد عليه معلومات أخرى ·

أما الترجمة لكل حادثة ، فان ابن الأثير يعنى أنه وضع عنوانا لكل حادثة يفصح عن مضمونها ، والواقع أن هذه ميزة كبيرة من مميزات ابن الأثير يفضل بها من سبقه من المؤرخين الذين جرى بعضهم على تدوين الأحداث بدون وضع عناوين لها ، بل بدون ترتيب موضوعى ، وانما يدونون أخبار السياسة والحروب والظواهر الجوية والأرضية ، والأمراض والأوبئة والوفيات مختلطة بعضها ببعض ، الأمر الذى يتطلب من الباحث قراءة أخبار السنة كلها حتى يصل الى الخبر الذى يطلبه ، فالدينورى وابن الجوزى — على سبيل المثال — أهملا وضع عناوين لأخبارها ، وابن الجوزى يخلط أحداث السنة بعضها ببعض ، فيما عدا الوفيات ، فانه يفردها فى آخر أخبار السنة ٠

وأما الحوادث الصغار التى يعنيها ابن الأثير ، والتى وضعها تحت عنوان (ذكر عدة حوادث) فهى الأخبار الفرعية لأحداث هامة سبق أن ذكرها بتوسع ، وكذلك الأخبار الصغيرة التى لا تحتمل عنوانا ، مثل مصادرات الخليفة أو السلطان للمغضوب عليهم من كبار الموظفين ، كذلك الأخبار المحلية ، مثل الصدام بين السنة والشيعة فى بغداد ، وأخبار الظواهر الجوية ، والأرضية ، وأخبار الغلاء والأوبئة والأمراض ٠ وفى نهاية هذه الأخبار — وتحت نفس العنوان — يترجم للمشاهير الذين توفوا فى السنة ٠

موضوع الكتاب :

وقد نص ابن الأثير فى مقدمة الكتاب على موضوعه ، فقال : انه جمع فيه « أخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما » متضمنة « الحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضا الى وقتنا هذا » ٠ فموضوع الكتاب اذن ، هو تاريخ العالم القديم منذ بدء الخليقة حتى ظهور الاسلام ، وتاريخ العالم الاسلامى منذ

ظهور الاسلام حتى عصر المؤلف ، أى الى سنة ٦٢٨ – وهى السنة التى أنهى بها ابن الأثير كتابه – أى أن الكتاب يغطى فترة زمنية من التاريخ الاسلامى طولها أكثر من ستة قرون وربع القرن .

ففى الزمن القديم ، أرخ ابن الأثير بدء الخليقة ، فذكر أول المخلوقات ، كالأرض والسماء ، والشمس والقمر والبحار والجبال والرياح والليل والنهار وقصة ابليس وما كان له من الملك ، وخلق آدم وحواء وأخبارهما فى الجنة وهبوطهما منها الى الأرض ، وقصة قابيل وهابيل ، وولادة شيث ، ثم وفاة آدم وأخبار ذريته بعد وفاته ، كذلك أرخ للأنبياء والرسل فذكر حوادثهم مع أقوامهم ، حتى وصل الى النبى عليه الصلاة والسلام ، فذكر مولده وتاريخ حياته ودعوته فى مكةالى ما قبيلالهجرة . وأرخأيضا الأممالسابقة: الفرس ، والروم ، واليونان ، وبنى اسرائيل ، والعرب ، فذكرأصل كل أمه ونسبها وحروبها وعلاقاتها بعضها ببعض . فذكر فى تاريخ الفرس سير ملوكهم منذ ملكهم الأول « طهمورث » حتى الملك يزدجرد الذى غزا المسلمون بلاد العراق وفارس فى عهده أيام الخليفة الأول أبى بكر ، فذكر أسماء ملوكهم ، وظروف ولاية كل ملك ومدة حكمه والأحداثالتىحدثت فى عهده ، مثل: الحروبمع الترك ، والروم ، واليهود ، والأحباش والعرب ، وغزو الاسكندر المقدونى لبلادهم ، كذلك ذكر أخبار حكمهم وسياستهم لشعوبهم ، ونظمهم الحربية والادارية والمالية . وذكر فى تاريخ بنى اسرائيل ، أخبارهم مع أنبيائهم منذ أن كانوا فى مصر وبعد خروجهم منها الى فلسطين ، وذكر ما أصابهم على يد الفرس والروم من الاضطهاد والحروب والتخريب . وذكر فى تاريخ (الروم) (١) صراعهم مع

---

(١) يلاحظ أن ابن الأثير أطلق اسم « الروم » على سكان آسيا الصغرى منذ القدم ، وهم الاغريق ، ولم يطلق عليهم اسم « الروم » الا بعد تأسيس القسطنطينية .

الفرس وغزو الاسكندر لبلادهم ، وظهور عيسى عليه السلام ، وقصة أصحاب الكهف ، ثم يصل بأخبارهم حتى ظهور الاسلام ٠ وذكر فى تاريخ اليونان ظهور الاسكندر ، فذكر نسبه وخروجه من بلاده « مقدونيا » غازيا واستيلاءه على الشام ومصر والجزيرة والعراق وبلاد (الروم) والترك والصين ، وبناءه السد (سد يأجوج ومأجوج) ، ثم ذكر وفاته ، وانقسام امبراطوريته بين خلفائه ، فذكر أسماء البطالمة الذين حكموا مصر ، وفى تأريخه للعرب ذكر صراعهم مع الفرس ، وحادث الفيل ، ومملكتى الحيرة وغسان ، وأيام العرب فى الجاهلية ٠ وفى تأريخه للعرب ، ذكر مولد النبى عليه الصلاة والسلام ، ووفاة أبويه ، وطفولته وشبابه ، وزواجه من السيدة خديجة ، والنبوءات عن ظهوره كنبى قبل مولده (والمعجزات) التى مهدت لنبوته ثم بعثته وتبشيره بالدعوة فى مكة ومعارضة قريش له ، واستجابة العدد القليل من أبناء مكة للدعوة ، وما لقيه النبى عليه الصلاة والسلام والمسلمون الأوائل من عنت قريش واضطهادها ، ثم هجرة المسلمين الى الحبشة وعودتهم منها الى مكة ٠

وأما تأريخه للعالم الاسلامى فقد بدأه بالسنة الأولى للهجرة ، وهى السنة التى هاجر فيها النبى عليه الصلاة والسلام والمسلمون الى المدينة ، والأخبار من السنة الأولى حتى السنة الحادية عشرة – وهى السنة التى توفى فيها النبى عليه الصلاة والسلام – كلها عن الأحداث فى عصر النبوة لم يخرج عن نطاقه ، فدون أخبار السرايا والغزوات ، وعلاقة المسلمين بأعدائهم قريش واليهود ، وانتهاء الصراع بين النبى عليه الصلاة والسلام وقريش بفتح مكة ، وانتهى تاريخ السيرة بوفاة النبى عليه الصلاة والسلام ٠

وبوفاة النبى ظهرت الخلافة ، فدون ظروف استخلاف الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، والأحداث التى حدثت فى

عهدهم ، مثل حروب الردة أيام أبى بكر الأولى ، ومقتل الخليفة عمر ، والثورة ضد الخليفة عثمان التى أدت الى مقتله ، والخصومة بين على بن أبى طالب من ناحية وبين الزبير وطلحة والسيدة عائشة من ناحية أخرى والتى نتج عنها موقعة الجمل ، وكذلك الخصومة بين على من جانب ومعاوية بن أبى سفيان من جانب آخر والتى نتج عنها موقعة صفين ، ومقتل على ، وانفراد معاوية بالخلافة · كذلك دون أخبار الفتوحات الاسلامية فى عهد الراشدين والأمويين والعباسيين · ففي المشرق ذكر فتوح العراق وما يقع شرقه من الأقاليم : كفارس ، وتركستان ، وطبرستان ، واقليم ما وراء النهر ، والهند والسند وغيرها · وفى المغرب ، ذكر فتوح افريقية والأندلس ، وجزر البحر المتوسط : قبرص ، وصقلية ، وكريت ، وأرواد · وفيما بين المشرق والمغرب ، ذكر فتوح الشام ومصر وآسيا الصغرى واليمن والبحرين وغيرها ·

وفى تأريخه للخلافة الأموية ، دون الأحداث التى واجهها الخلفاء الأمويون ، كثورة الحسين بن على التى انتهت بقتله سنة ٦١ هـ ، وثورات العلويين بعده ، وثورة الخوارج ، ومنافسة عبد الله بن الزبير بن العوام للأمويين على الخلافة التى انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ · كذلك دون أخبار مؤامرات العباسيين والعلويين لاسقاط الخلافة الأموية التى بدأت من سنة مائة للهجرة حتى نجحوا وقضوا عليها فى سنة ١٣٢ هـ ، فاستأثر العباسيون بالخلافة دون العلويين ، فدون ابن الأثير أخبار الأحداث الكبرى أيام الخلافة العباسية ، كالثورات ضدها وهى كثيرة ، كان بعضها خطيرا ، وأهمها : خروج العلويين أكثر من مرة ، مثل خروج عبد الله بن على سنة ١٣٧ ، وخروج الراوندية سنة ١٤١ ، والخرمية سنة ٢٠١ ، والزط سنة ٢١٩ ، والزنج سنة ٢٥٥ ، والقرامطة سنة ٢٨٦ ؛ كذلك ظهرت فى عصرها — فى المشرق — الأسرات الحاكمة المتغلبة

على الخلافة ، وقد استبدت كل أسرة بالاقليم الذى كانت تحكمه باسم الخلافة واستقلت به ، والأسر التى ظهرت ، ودون ابن الأثير أخبارا كثيرة ، أهمها : الأسرة الطاهرية سنة ١٩٥ ، والسامانية سنة ٢٠٤ ، والصفارية سنة ٢٥٣ ، والبويهية سنة ٣٢١ ، والسلجوقية سنة ٤٣٢ ، وقد بسط البويهيون والسلاجقة نفوذهم التام على الخلافة والخلفاء ، واستبدوا بادارة البلاد سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، ولم يبقوا للخلفاء الا السلطة الروحية . وفى المغرب انفصل الأندلس عن الخلافة العباسية فى سنة ١٣٩ هـ بزعامة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل ، كذلك انفصلت افريقية عن الخلافة العباسية نهائيا بظهور الفاطميين فيها فى سنة ٢٩٦ . أما ما بين المشرق والمغرب ، أى مصر والشام، فظهرت الأسرة الطولونية فى سنة (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) والأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨) والحمدانية بحلب سنة ٢٩٣ وبالموصل سنة ٣٣٣، ثم جاء الفاطميون من افريقية واستولوا على مصر والشام (٣٥٨ ـ ٥٦٧) ، وظلتا منفصلتين عن الخلافة العباسية حتى أعيدتا اليها ـ اسميا ـ بعد القضاء على الخلافة الفاطمية .

هذا وقد دون ابن الأثير أخبار الصراع والحروب بين المتنافسين من الأسر الحاكمة فى المشرق على النفوذ والتوسع الاقليمى ، الى أن ظرت الأسرة الخوارزمية سنة ٤٩٠ ، فدون ابن الأثير أخبار الحروب التى أثارها ملوك الأسرة ، ضد ملوك وأمراء الأقاليم المجاورة لهم ، واستيلائهم على اماراتهم حتى استنفدوا قوتهم وقوة المشرق كله حتى كان خروج التتر الى المشرق فى سنة ٦١٦، فلم يستطع الخوارزميون صد زحفهم ، فانتشروا فى الاقليم كله ، وأعملوا فيه التخريب والتدمير والقتل . كذلك دون ابن الأثير أخبار الشعوب الأخرى التى ظهرت على المسرح السياسى والحربى ، مثل : الخطا ، والغور ، والغز ، والكرج ، والحروب

التى دارت فيما بينهم من ناحية وبينهم وبين السلطات الحاكمة من ناحية أخرى .

وفى المغرب تتبع ابن الأثير أخبار افريقية والأندلس منذ أن فتحهما المسلمون ، فذكر أهم الأحداث التى حدثت فى افريقية فى عصر ولاة الخلفاء الراشدين والأمويين فدون أخبار محاولات الولاة فى التوسع ، والمنافسات على الحكم ، وظهور الأسر المختلفة فيها ، وأهمها : الأدارسة ، والأغالبـــة ، والفاطميون ، والزيريون ، والمرابطون ، والموحدون ، فدون الأحداث التى حدثت فى عصر كل أسرة ، كاستيلاء الفاطميين على مصر ، وتدخل المرابطين والموحدين فى شئون الأندلس عندما ظهرت الحركة الاسبانية القومية .

كذلك تتبع أخبار الأندلس منذ أن فتحها المســـلمون ، فذكر محاولات المسلمين التوسعية على حساب بلاد غالة (فرنسا الحالية) فى عصر الولاة ، وأخبار المنافسات التى قامت بين القبائل العربية والبربر ، وبين القبائل العربية وبعضها بعضا على السلطة والنفوذ حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية الأموى وأسس فيهـــا الدولة الأموية ، فدون أخبارها فى عصر الأمويين حتى أصابهم الضعف ، فظهر ملوك الطوائف ، وظهرت فى الوقت نفسه حركات الاسترداد الاسبانية ونجاح الاسبان فى استرداد كثير من البلاد من المسلمين ، وتدخل حكام افريقية كالمرابطين والموحدين فى شـــئون الأندلس ومحاولتهم الحفاظ على البلاد وفشلهم حتى أدى الأمر الى استرداد الاسبان بلادهم من المسلمين .

غير أنه يلاحظ أن أخبار ابن الأثير عن افريقية والأندلس أخذت تقل تدريجيا منذ سنة ٥٦٩ حتى انقطعت عنده تماما فى سنة ٥٩٥ ، ولعل سبب ذلك هو عدم حصوله على مصادر مكتوبة . ولعله بسبب فقدان المصادر الخبرية عن افريقية والأندلس ، جمـــع

المستشرق « فانيان » أخبارهما من ابن الأثير ، وترجمها الى اللغة الفرنسية ونشرها فى الجزائر فى سنة ١٩١٠ .

وأما ما بين المشرق والمغرب ، الشام ومصر ، فقد تتبع ابن الأثير أحداثهما منذ أن فتحهما المسلمون ، فذكر أحداث مصر الداخلية والخارجية فى عصر الولاة وفى عصر الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين حتى سنة ٦٢٨ هـ . ومن أهم أحداث مصر الخارجية علاقاتها بالامبراطورية البيزنطية ، وتهديد الصليبيين لها منذ دخولهم الشام سنة ٤٩٠ هـ . كذلك تتبع أحداث الشام ، فذكر أخباره منذ أن فتحه المسلمون حتى سنة ٦٢٨ ، فذكر الأحداث التى مرت بالبلاد فى عصر الولاة وفى عصر العباسيين واقتطاع الفاطميين لها من الخلافة العباسية ، ثم ذكر الغزو الصليبى لها فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، فدون أخبار الحروب التى قامت بينهم وبين المسلمين . وقد توفى ابن الأثير فى سنة ٦٣٠ ، ومازال الصليبيون يحتلون جزءا كبيرا من البلاد .

وذكر ابن الأثير أيضا ، احتكاك المسلمين بالشعوب البعيدة عنهم ، كالهنود ، والصينيين ، والروس ، وهى أخبار على قلتها ، تعنى اهتمام ابن الأثير باستيفاء أخباره عن العالم الاسلامى بحيث لا يفوته شىء منها .

وبالاضافة الى ما دونه ابن الأثير من الأخبار السياسية والحربية ، فانه عنى أيضا بتدوين أخبار الحوادث المحلية فى كل اقليم ، فدون — على سبيل المثال — أخبار الصراع بين السنة والشيعة فى بغداد ، وأخبار الظواهر الجوية والأرضية فيها وفى غيرها من الأقاليم الاسلامية وأثرها فى الحياة المعاشية من رخص وغلاء ، وقحط ورخاء ، كذلك ذكر أخبار الأمراض والأوبئة . وترجم أيضا بعض المشهورين فى كل سنة فى المناطق المختلفة من العالم الاسلامى .

وبعد هذا التعريف بكتاب الكامل ، لابد من تقييم أخباره ، وسوف نقيمها هنا بايجاز محيلين القارىء الى دراستنا المفصلة الواسعة المزمع نشرها قريبا ٠

فتأريخ ابن الأثير لبدء الخليقة والأنبياء يبدو عليه السطحية وعدم الدقة ومجاراة الطبرى فى تفصيل الأحداث الواردة فى القرآن بتفاصيل أسطورية لا تقوم على سند تاريخى ، وانما تقوم على أحاديث مدخولة لا يمكن صدورها عن النبى ، أو عن روايات يتناقلها المؤرخون القدامى ، وعلى كل حال ، فابن الأثير اعتمد اعتمادا كليا على الطبرى ، والطبرى طويل النفس فى تدوين الأخبار التى يحصل عليها فيدونها دون تمحيص أو تحقيق ، فأطال ابن الأثير نفسه مع الطبرى ، وان كان يمتاز عنه فى أنه استنكر بعض الأخبار وناقشها مناقشة موضوعية تدل على بصيرة واعية ، ولذلك يستغرب من ابن الأثير عدم ثقته بأخبار بدء الخليقة والأنبياء ومع ذلك يصر على تدوينها ، والأغرب من هذا أن يثق بأخبار أخرى غير موثوق بها لثقته بالسند لا لمعقولية الخبر ٠ فمن الأخبار التى ناقشها بوعى ، ما ذكره الطبرى من أن سعيد بن المسيب كان يحلف بالله « ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ، ولكن سقته حواء من الخمر حتى سكر ، فلما سكر قادته اليها فأكل منها » ، فيعلق ابن الأثير على قول سعيد بقوله : « قلت : والعجب من سعيد كيف يقول هذا ، والله يقول فى صفة خمر الجنة (لا غول فيها) » ٠ ولكنه يقف موقفا متناقضا من الخبر الذى ذكره الطبرى فى حديثه عن النبى عليه الصلاة والسلام عن (القول فى الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه) حيث يقول ابن الأثير فى نهاية الخبر : « قلت : وروى أبو جعفر ههنا ، حديثا طويلا عدة أوراق عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى خلق الشمس والقمر وسيرهما ، فانهما على عجلتين ، لكل عجلة ثلاثمائة وستون عروة ، يجرها بعددها من الملائكة ، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان فى بحر بين السماء والأرض فذلك كسوفهما ،

ثم ان الملائكة يخرجونهما فذلك تجليهما من الكسوف ، وذكر الكواكب وسيرها وطلوع الشمس من مغربها ، ثم يذكر مدينة بالمغرب تسمى « جابرسا » وأخرى بالمشرق تسمى « جابرقا » ، ولكل واحدة منهما عشرة آلاف باب ، يحرس كل باب منها عشرة آلاف رجل لا نعود الحراسة اليهم الى يوم القيامة ؛ وذكر يأجوج ومأجوج ومنسك وثاريس ، الى أشياء أخرى لا حاجة لذكرها » ثم يقول : « فأعرضت عنها لمنافاتها العقول ، ولو صح اسنادها لذكرناها وقلنا به ، ولكن الحديث غير صحيح ، ومثل هذا الأمر العظيم لا يجوز أن يسطر فى الكتب بمثل هذا الاسناد الضعيف » • ومن هذا التعليق يتبين موقف ابن الأثير المضطرب من الخبر ، فبينما هو يرفضه لأنه ينافى العقول – وهو هنا استعمل عقله – اذ به يذكر سببا آخر للرفض وهو عدم صحة الاسناد ، ومعنى هذا أنه لو اطمأن الى صحة الاسناد لقبل الخبر برغم ثقته ببطلانه لأنه ينافى العقول ، فالمقياس عنده فى الفصل بين صحة الخبر وكذبه ، هو الاسناد دون الاعتماد على العقل ، ومن هنا يتبين تأثر ابن الأثير بمنهج المحدثين فى النقل والتدوين ، وهو منهج السند وليس نقد الحديث •

أما تأريخه للأمم السابقة ، فان فيه من الأخبار الغث والسمين ، وبخاصة أخبار الفرس ، حيث تتخللها أيضا الخرافات والأساطير والمبالغات ، فقد أكثر من الأساطير المنسوبة لملوك الفرس وخرافاتهم ، وهو وان كان قد اعتذر أكثر من مرة لتدوينها ليشنع على الفرس لأنهم كثيرا ما يشنعون على العرب ، ولكنه نسى أنه دون الى جانب أساطيرهم وخرافاتهم أخبار سياسة ملوكهم ، وصلاحية حكمهم ، وأنه أبدى اعجابه أكثر من مرة بهؤلاء الملوك ، وكأنه بهذا الاعجاب وما ذكره من الأخبار المقبولة ، قد أفسد عليه غرضه من التشنيع على الفرس ، فقد ذكر بعض نظمهم السياسية والحربية والاقتصادية ، وهى نظم استفادت منها شعوب أخرى كالمسلمين ، فمن نظم الفرس الاقتصادية ، ما ذكره عن نظام الخراج والجزية الذى

وضعه كسرى أنوشروان ، والذى عمل به الخليفة الثانى عمر بن الخطاب مع تعديل بسيط • يقول ابن الأثير تحت عنوان (ذكر ما فعله كسرى فى أمر الخراج والجزية) : « كان ملوك الفرس يأخذون من غلات كورهم قبل ملك كسرى أنو شروان خراجها : من بعضها الثلث ، ومن بعضها الربع ، وكذلك الخمس والسدس على قدر شربها وعمارتها ، ومن الجزية شيئا معلوما ، فأمر الملك قباذ بمسح الأرضين ليصبح الخراج عليها ، فمات قبل الفراغ من ذلك ، فلما ملك أنو شروان ، أمر باستتمام ذلك ، ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والأرز ، على كل نوع من هذه الأنواع شيئا معلوما ، ويؤخذ فى السنة فى ثلاثة أنجم ، وهى الوضائع التى اقتدى بها عمر بن الخطاب ـ وكتب كسرى الى القضاة فى البلاد نسخة بالخراج ليمتنع العمال من الزيادة عليه ، وأمر أن يوضع عمن أصابت غلته جائحة ، وألزموا الناس جزية ما خلا : العظماء ، وأهل البيوتات ، والجند ، والهرابذة ، والكتاب ، ومن فى خدمة الملك ، كل انسان على قدره : اثنى عشر درهما ، وثمانية دراهم ، وستة دراهم ، وأربعة دراهم ، وأسقطها عمر ابن الخطاب « عمن لم يبلغ عشرين سنة أو جاوز خمسين سنة » • ومثل هذا الخبر وغيره يفيد الباحثين المحدثين فى معرفة المصادر الأساسية للنظم الاسلامية •

وفى أخباره عن الاسكندر المقدونى ، يعتبره ابن الأثير أنه « ذو القرنين » الوارد ذكره فى القرآن ، ولعله تأثر باليعقوبى الذى يقول بهذا القول ، ومن ثم أخذ يطبق أعماله على ما ورد فى القرآن عن « ذى القرنين » •

وأضبط تواريخ ابن الأثير عن الأمم السابقة ، هو تأريخه لبطالمة مصر ، فهو يتفق والدراسات الحديثة فى أسمائهم ومدة حكم كل بطلمى • وكذلك تأريخه للروم ، فانه يتفق والمؤرخ الانجليزى

« رنسمان » فى أسماء تسعة عشر ملكا ـ من أصل واحد وعشرين ملكا ـ من ملوك القسطنطينية المسيحيين الذين يبدءون بقسطنطين وينتهون بفوقاس ، كذلك يتفقان فى مدة حكم كل ملك ، فيما عدا بعض اختلافات يسيرة . كذلك يتفقان فى عدد المجامع الدينية المسيحية التى عقدت فى بيزنطة وأسباب انعقادها وقراراتها .

وأما تأريخه للسيرة (سيرة النبى عليه الصلاة والسلام) ، فانه محشو أيضا بالخرافات والمبالغات ، وهى التنبؤات عن مولد النبى ، وقبل بعثه وبعدها ، ويوردها ابن الأثير على أنها معجزات للنبى ، والواقع أنها أخبار يظهر فيها الصنعة والتكلف من رواتها الأول ، مثال ذلك ما ذكره من أن زرادشت نصح أتباعه فى كتاب « بازند » : « تمسكوا بما جئتكم به الى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » فيقول ابن الأثير ، ان زرادشت « يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، وذلك على رأس ألف سنة وستمائة سنة » . ويذكر من أخبار دلائل نبوة النبى قبل بعثه ، الخبر التالى عن جبير بن مطعم ، أنه قال : « كنا جلوسا عند صنم « بوانة » قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر ، ونحرنا جزورا ، فاذا صائح يصيح من جوف الصنم : اسمعوا الى العجب ، ذهب استراق الوحى ونرمى بالشهب لنبى بمكة اسمه أحمد ، مهاجره الى يثرب . قال (جبير) : فأمسكنا وعجبنا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم » ومثل هذه المبالغات المتكلفة كثيرة ، نكتفى منها بما ذكرنا ، وأما الأخبار الصحيحة والمقبولة شكلا وموضوعا ، فان ابن الأثير لم يأت بجديد عما ذكره السابقون عليه من مؤرخى السيرة وغيرهم من المؤرخين .

أما تأريخه للعالم الاسلامى ـ بعد السيرة ـ فهو موضع الاعجاب والتقدير حقا ، لاتزان أخباره ، وجديتها ، ودسامتها وأهميتها ، بحيث أنها ـ اليوم ـ المصدر الأساسى للدارسين المحدثين من شرقيين وغربيين ، وميزات ابن الأثير فى تأريخه للعالم الاسلامى كثيرة ،

تمنعنا هذه العجالة من الاسترسال والوصف ، ولذلك نستعرض أهمها استعراضا موجزا فيما يلى :

ـ بروز شخصيته فى أخباره : ويتمثل فى نقده لأصحاب مصادره ، وفى مناقشته الأخبار والتعليق عليها (وقد سبق الحديث عنها فى الفصل السابق) ٠

ـ أسلوبه : كتب ابن الأثير تاريخه بالأسلوب النثرى المرسل ، وتجنب الزخرفة اللفظية ، والألفاظ الحوشية ، فخلت كتابته من التعقيد ، واهتم بابراز المادة الخبرية بعبارات موجزة ولكنها واضحة ٠ ومع ذلك نجد فى أسلوبه حيوية ونشاطا ، وفيه فكاهة ودعابة ، فهو يستشهد بالشعر فى بعض المناسبات ، ويعلق على بعض الأحداث والأخبار تعليقات ساخرة ، ويضرب الأمثال المناسبة للحادث ، ومنها أمثال تجرى على ألسنة العامة ـ مثال ذلك ، أنه لما حاصر الصليبيون دمياط سنة ٥٦٥ هـ ، استباح نور الدين محمود بلادهم فى الشام واستولى على بعضها ، فلما علم الصليبيون بذلك وتأكد لهم عجزهم فى الاستيلاء على دمياط عادوا الى الشام مسرعين ، فيسخر ابن الأثير منهم ويعلق على عودتهم بقوله : « وهذا موضع المثل ، خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين » ٠ ويذكر أيضا فى أخبار سنة ٦١٥ ، أن كلا من صاحب مدينة سنجار ورجال حكومته تخوفوا من بعضهم بعضا ، فعزم صاحب سنجار على الغدر بهم ، فسبقوه وخانوه ، فيقول ابن الأثير : « فتغدوا به قبل أن يتعشى بهم » ٠

ـ انفعالاته : وهذه ظاهرة ـ أو ميزة ـ قلما نجدها عند غيره من المؤرخين وهى تسجيله انفعالاته مع الأحداث ـ سواء كانت انفعالات رضى أو استنكار ـ وان كانت سابقة على عصره ، وهو يسجل انفعالاته اما عن طريق النقد أو التعليق ، وهذه الانفعالات تزيد من توضيح صورة الحادث الذى يدونه ٠ فهو يذكر فى ترجمته لنقفور ملك الروم شدته على المسلمين والبلاد التى استولى عليها منهم ، ثم

يقول : « وتم له ما أراد باشتغال ملوك الاسلام بعضهم ببعض » ٠ وكان الملك جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهى سيىء السيرة ضعيفا ، ومع ذلك امتد حكمه لفترة طويلة ، فيقول ابن الأثير : « ومن علم سيرته وضعفه ، واستيلاء الجند والنواب عليه ، ودوام ملكه الى هذه الغاية ، علم أن الله على كل شىء قدير ، يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء » ٠ ومن تعليقاته الراضية ، ففى ترجمته لركن الدولة البويهى ـ وكان حسن السيرة ـ يقول : « فدام مرضه الى أن توفى ، فأصيب الدين والدنيا جميعا ، لاستكمال جميع خلال الخير فيه » ، وغير ذلك من الانفعالات التى نذكرها فى حديثنا عن تدوينه أخبار الحروب الصليبية ، والغزو التترى ٠

ـ التنبيهات : ويذكرها ابن الأثير فى الخبر ، سواء فى ثناياه أو فى نهايته تذكرة للقارىء ، أهمها تنبيهه اذا كان للخبر بقية تأتى فى السنة التالية ، مثال ذلك ، ما ذكره تحت عنوان (ذكر حال وشمكير بعد قتل أبيه) سنة ٣٢٣ ، حيث يذكر ما حدث بين « وشمكير » وبين نصر أحمد السامانى وماكان بن كالى ، ثم يقول فى آخر الخبر « وسنذكر باقى خبرهم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة » وهذا التنبيه هام ، لأن ابن الأثير ينهى الخبر بقوله : « ولما سار ما كان عن كرمان عاد اليها أبو على محمد بن الياس فاستولى عليها ، وصفت له بعد حروب له مع جنود نصر بكرمان ، وكان الظفر له أخيرا » فيفهم من هذه الخاتمة بأن الحادث قد انتهى الى هذا الحد ، ولكن تنبيه ابن الأثير هنا ينبه القارىء الى أن الحادث لم ينته بعد ، وأن له بقية فى سنة ٣٢٤ ، فيتابع الخبر الى هذه السنة ٠ وكذلك تنبيهه الى اختلاف الروايات فى الحادث الواحد ، مثال ذلك ٠ ما ذكره تحت عنوان (ذكر هروب ابن المهلب) سنة ١٠١ ، فبعد أن ذكر سبب خوف ابن المهلب من الخليفة ، قال : « وقيل فى سبب خوف ابن المهلب من يزيد بن عبد الملك ما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى » ٠ وقوله تحت عنوان (ذكر انقراض دولة بنى سبكتكين) سنة ٥٤٧ ،

وظهور دولة الغورية : « وبالجملة ، فابتداء دولة الغورية عندى فيها خلف ، لو ينكشف الحق فأصلحه ان شاء الله تعالى » ٠

ـ ضبط الأسماء المشتبهة ، المؤتلفة فى الخط المختلفة فى اللفظ مثل « البريدى » فقد ضبطه هكذا : (بالباء الموحدة والراء المهملة ، منسوب الى البريد) . كذلك شرح الألفاظ الأعجمية وغيرها التى ترد فى الأخبار ، مثال ذلك :

شباسى : وهو لفظ تركى ، معناه : قائد الجيش ٠

كاكويه : وهو لفظ بلغة الديلم ، معناه : الخال ٠

رتيل رننه : اسم مكان ، هو : مضيق رننه .

البستان : اسمه فى لغة أهل المغرب « البحيرة » ، وتسمى وقعة حدثت فى المغرب فى سنة ٥١٤ « وقعة البحيرة » ، أى وقعة البستان ٠ وغير هذه الألفاظ التى شرحها كثير ٠

كذلك يعرف بأهمية بعض الأماكن ، فيقول عن مدينة « هرمز » ، « فان هرمز مرسى عظيم ، ومجمع للتجار من أقاصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد » ٠

ويلاحظ أن ابن الأثير ، جرى على تجريد أخباره من « السند » فى تاريخه الا فى مناسبات قليلة ٠ واهمال ابن الأثير « السند » ليست بدعة ابتدعها ، وانما سبقه اليها مؤرخون سابقون عليه بقرون ، جردوا أخبارهم منه ، مثل : الدينورى (توفى سنة ٢٨٧) فى كتابه « الأخبار الطوال » ، واليعقوبى (توفى بعد سنة ٢٩٢) فى تاريخه المعروف باسمه ، ومسكويه (توفى سنة ٤٢١) فى كتابه « تجارب الأمم » ٠ ولعل ابن الأثير اقتفى اثرهم تفهما منه أن قراء التاريخ من ذوى الثقافة المتوسطة ـ الذين يهمهم الخبر أكثر مما يهمهم السند ـ أكثر عددا من المتخصصين الذين يهمهم معرفة

السند مع الخبر ، ولذلك ، رأى أن الأكثرية أحق بالرعاية وتيسير القراءة لهم من الأقلية المتخصصة ، فضـــلا عن أن ذكر السند تتحمله المطولات وتحتاج اليه الكتب ذات الموضوعات الخاصة ، أما المختصرات (وابن الأثير يعتبر كتاب منها) فانها تعمد الى التجاوز عند السند . لأن الغرض من الأخبار التاريخية هو الافادة والتعليم .

مصادره :

استعمل ابن الأثير المصادر بأنواعها : المصنفات ، والوثائق ، والنقوش ، والآثار ، والرسائل الشخصية ، والمعاصرين ، ومشاهداته بطبيعة الحال . ويختلف استعماله لكل نوع من هذه المصادر من حيث الكثرة والقلة بحسب امكانياته .

وأوسع المصادر استعمالا هى المصنفات بطبيعة الحال ، وقد تخير ابن الأثير منها الموثوق بها ، فقد اعتمد على أمهات المصنفات التى تؤرخ القسم المشرقى من العالم الاســــلامى ، وقد سمى هذه المصنفات فى كتابه باعتبارها مصادره الرئيسية التى نقل منها حتى سنة ٤٤٧ ، وقد كان من حسن حظ ابن الأثير ، أن هذه المصادر سلسلة متصلة الحلقات يكمل بعضها بعضا ، فالكتاب الأول الذى اعتمد عليه هو « تاريخ الأمم والملوك » للطبرى الذى يبدأ من بدء الخليقة وينتهى بسنة ٣٠٢ هـ . والكتاب الثانى هو تاريخ ثابت بن سنان الذى يبدأ بسنة ٢٦٥ وينتهى بسنة ٣٦٣ ، والكتاب الثالث « تـكملة تاريخ الطبرى » للهمذانى الذى ينتهى بسنة ٤٨٧ ، والكتاب الرابع « تجارب الأمم » لمسكويه الذى يبدأ من بدء الخليقة وينتهى بسنة ٣٦٩ ، والكتاب الخامس « ذيل تجارب الأمم » للوزير أبى شجاع الروزراورى الذى يبدأ بسنة ٣٦٩ هـ وينتهى بسنة ٣٨٩ ، والكتاب السادس « تاريخ هلال الصابى » الذى يبدأ بسنة ٣٦٣ وينتهى بسنة ٤٤٧ ؛ بالاضافة

الى كتاب « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » لابن الجوزى الذى يبدأ ببدءالخليقة وينتهى بسنة ٥٧٤ ، هذا بالاضافة الى المصادرالمساعدة التى نذكرها بعد • أما مصادره عن القسم المغربى ومـا بين المشرق والمغرب ، كالشام ومصر واليمن ، فانه رجع الى مصادر مشهورة ، ذكر بعضها وأغفل عن ذكر بعضها الآخر • وفيما يلى مصادر ابن الأثير التى رجع اليها ، سواء التى ذكرها هو والتى عرفناها نحن ، وليست هى ـ بطبيعة الحال ـ كل المصادر التى رجع اليها :

فمصادره عن الزمن القديم :

ـ تاريخ الأمم والملوك : للطبرى

ـ أنساب الأشراف : للبلاذرى •

ـ تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام : لحمزة الأصفهانى •

ـ الملل والنحل : للشهرستانى •

ومصادره عن السيرة :

ـ الطبرى : الكتاب السابق •

ـ البلاذرى : الكتاب السابق •

ومصادره عن مشرق العالم الاسلامى :

ـ الطبرى : الكتاب السابق •

ـ أخبار الخلفاء : للتميمى •

ـ تاريخ ثابت بن سنان •

ـ تجارب الأمم وتعاقب الهمم : لمسكويه •

ـ اليمينى : للعتبى •

ـ كتاب التاريخ : لهلال الصابى

ـ تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى .

ـ ذيل تجارب الأمم : للوزير أبى شجاع الروزراورى .

ـ تكملة تاريخ الطبرى : للهمذانى .

ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزى .

ـ مسارب التجارب : للبيهقى .

ـ نصرة الفترة وعصرة القطرة : للعماد الكاتب الأصفهانى .

ومصادره عن مغرب العالم الاسلامى (افريقية ، والمغرب ، والأندلس) :

ـ الطبرى : الكتاب السابق .

ـ تاريخ افريقية والمغرب : للأمير عبد العزيز .

ـ فتوح مصر والمغرب : لابن عبد الحكم .

ـ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس : للحميدى .

ومصادره عن مصر :

ـ الطبرى : الكتاب السابق .

ـ سيرة أحمد بن طولون : للبلوى .

ـ النكت العصرية فى الوزارة المصرية : لعمارة اليمنى .

ـ فتوح مصر والمغرب : لابن عبد الحكم .

ومصادره عن الشام :

ـ الطبرى : الكتاب السابق .

ـ ذيل تاريخ دمشق : لابن القلانسى .

ـ تاريخ دمشق : ابن عساكر .

- البرق الشامى :
- الفتح القسى فى الفتح القدسى } للعماد الكاتب الأصفهانى .
- تاريخ حلب : لابن العديم .

ومصادره عن الموصل والجزيرة :

- الطبرى : الكتاب السابق .
- تاريخ الموصل : ابن اياس الأزدى .
- تاريخ العظيمى .

ومن مصادره المنوعة أيضا : دمية القصر للباخرزى ، والاكمال لابن ماكولا ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، ومشتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد . هذا بالاضافة الى الكتب المعماة التى ذكرها ولم يصرح بأسمائها أو أسماء مصنفيها .

وقد حظى كتاب « الكامل » بتقدير القدامى فأشادوا به واحتفلوا به ، فممن قرظ الكتاب :

- ابن خلكان (فى ترجمته لابن الأثير فى كتابه وفيات الأعيان) ، فقال عنه ، انه « من خيار التواريخ » .

- ووصفه ابن كثير (فى ترجمته لابن الأثير فى كتابه البداية والنهاية فى التاريخ) ، بأنه من أحسن مؤلفات ابن الأثير .

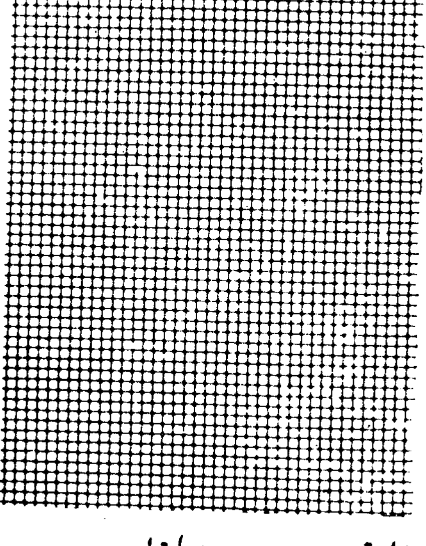
- وقال ابن الأكفانى (فى كتابه ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد) ، ان « أضبط التواريخ فى زماننا الذى جمعه ابن الأثير » .

- وقال السخاوى (فى كتابه الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) : « وللأستاذ الحافظ العلامة العز أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ابن الأثير صاحب « معرفة الصحابة » و « الأنساب » وغيرها ، التاريخ المسمى بالكامل ، وهو

كاسمه بحيث قال شيخنا ، انه أحسن التواريخ بالنسبة الى ايراد الوقائع موضحة ببينة حتى كان السامع فى الغالب حاضرها من حسن التصرف وجودة الايراد ، قال : « بحيث خطر لى أن أذيل عليه من سنة وقف وهى سنة ثمان وعشرين وستمائة ـ يعنى قبل وفاته بسنتين ـ ولكن لم يتيسر لشيخنا ذلك ؛ نعم ذيل عليه أبو طالب على بن أنجب البغدادى الخازن المتوفى فى سنة أربع وسبعين وستمائة » . وقد وصل ابن أنجب فى تذييله الى سنة ٦٥٦ ، وهى سنة سقوط الدولة العباسية ، وغيرهم .

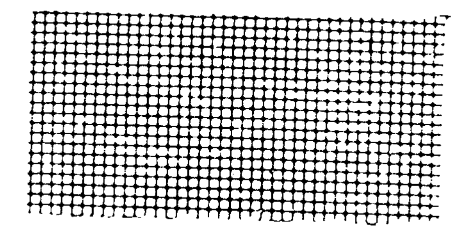
وأما من نقل عن الكتاب فانهم كثيرون ، نذكر منهم : سبط ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » ؛ وأبو شامة فى كتابيه « الروضتين فى أخبار الدولتين » و «الذيل على الروضتين» (طبع بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ؛ وابن واصل فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ؛ وأبو الفداء فى كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » ؛ وابن الساعى فى كتابه « الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير » ، وابن خلدون فى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . وغيرهم .

أما تقدير المهتمين بالتاريخ الاسلامى من المحدثين للكتاب ، فيكفى القول أن جل اعتمادهم عليه فى أبحاثهم ومؤلفاتهم عن التاريخ الاسلامى .



الفصل الخامس

تاريخ ابن الأثير أحداث عصره



يمتاز ابن الأثير بانفراده – من بين معاصريه – كمؤرخ لحادثين خطيرين حدثا فى المنطقة التى يعيش فيها والمناطق القريبة منها ، وأرخهما بتوسع من بدايتهما الى ما قبيل وفاته بسنتين ، أى الى سنة ٦٢٨ ، وهما : الحروب الصليبية ، والغزو التترى . وسوف نتحدث عنهما بايجاز لضيق المقام ، ونحيل القارىء الى دراستنا المفصلة الواسعة عنهما لكتاب « الكامل فى التاريخ » .

الحروب الصليبية :

فأما الحروب الصليبية ، فقد ظهر قبل ابن الأثير مؤرخون أرخوا للحروب ، مثل ، ابن زريق ، وابن أبى جرادة ، والأثاربى المتوفى سنة ٥٢٠ ، وأخيرا ابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ . وبعد وفاة ابن القلانسى لم يظهر مؤرخ جامع للحروب الصليبية سوى

ابن الأثير الذى ولد فى نفس السنة التى توفى فيها ابن القلانسى . صحيح كان هناك العماد الكاتب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ، والقاضى بهاء الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ ، وابن أبى طى الحلبى المتوفى سنة ٦٣٠ (أى فى نفس السنة التى توفى فيها ابن الأثير) والثلاثة أرخوا الحروب الصليبية ولكن لفترة محدودة . فالعماد الكاتب أرخها فى كتابه « البرق الشامى » من سنة ٥٥٢ — وهى السنة التى دخل فيها الشام فى خدمة نور الدين محمود — حتى سنة ٥٨٩ — وهى السنة التى توفى فيها صلاح الدين الأيوبى — ؛ والقاضى ابن شداد وابن أبى طى ، فانهما أرخا الحروب الصليبية فى عصر صلاح الدين فقط ، الأول فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو عن صلاح الدين ، والآخر (ابن أبى طى) فى كتابه « كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين » وهو عن صلاح الدين أيضا . أما ابن الأثير ، فانه أرخ الحروب تأريخا جامعا متصلا منذ بدايتها فى سنة ٤٩١ حتى سنة ٦٢٨ ، أى الى ما قبل وفاته بسنتين . فكان هو المرجع الأساسى لمن جاء بعده ممن أرخ الحروب الصليبية : كأبى شامة فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » وابن واصل فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » وسبط ابن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » وغيرهم كثير .

ولم يعاصر ابن الأثير الفارة الصليبية منذ بدايتها ، وانما عاصرها بعد خمس وستين سنة من استقرار الصليبيين فى الشام ، فقد ولد فى سنة ٥٥٥ كما سبق أن ذكرنا ، بينما كان دخول الصليبيين الشام فى سنة ٤٩١ . وكان أول معرفته بالفارة الصليبية ، وهو فى سن التمييز ، ومن المؤكد أنه سمع بها من والده فى مجالسه الخاصة عندما كان يحدث أصحابه عن ذكرياته عن بنى زنكى وسياستهم وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم أخذت معلوماته عنها تزداد بمشاهداته حين كبر وبعد أن سافر الى

الشام ـ ميدان الصراع الاسلامى الصليبى ـ وحضر فيها بعض المعارك الاسلامية الصليبية مع صلاح الدين الأيوبى .

وقد استعان ابن الأثير فى تأريخ الفترة التى لم يعاصرها على المصادر السابقة عليه والتى ذكرناها آنفا ، كذلك استعان فى بداية الفترة التى عاصرها بالعماد الكاتب ، وما بعدها اعتمد على مشاهداته ومن المعاصرين فى الشام حيث تردد على الشام كثيرا أيام صلاح الدين وخلفائه وقد حضر مع صلاح الدين كثيرا من معاركه ضد الصليبيين ـ مشاهدا لا مشاركا فى القتال ـ .

وقد تضمن تأريخ ابن الأثير للحروب الصليبية ـ بحسب التقسيم الحديث للحملات الصليبية ـ أخبار الحملات : الأولى ، والثانية ، والثالثة ، والخامسة ، والسادسة . وأما الحملة الرابعة ، فقد كانت معدة لغزو المسلمين ـ كما يقول المؤرخون الأوربيون ـ ولكنها تحولت الى القسطنطينية لأسباب ذكروها ، ومع ذلك ، فقد ذكرها ابن الأثير أيضا ، وذكر أسبابها ، وربط بينها وبين الحملة الخامسة على الشام .

ومن أخبار ابن الأثير عن القوى الاسلامية التى واجهت الصليبيين على طول الحقبة التى أرخها (٤٩١ ـ ٦٢٨) يمكن تقسيمها الى أربع مراحل ، تمتاز كل مرحلة عن سابقتها بوضع خاص بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء ، ويظهر فارق وضع كل مرحلة ظهورا واضحا لا يحتاج الى مجهود كبير لموازنة جهود القوى الاسلامية التى واجهت الصليبيين قوة بعد قوة ، ولذلك ، نستعرض تأريخ ابن الأثير الحروب ـ استعراضا موجزا فى ضوء هذا التقسيم .

فالمرحلة الأولى : تبدأ منذ دخول الصليبيين الشام فى سنة ٤٩١ حتى سنة ٥٢٠ ، وهى مرحلة المد الصليبى والانحسار الاسلامى ، ذلك أن القوة الاسلامية التى واجهت

الصليبيين كانت ضعيفة مفككة ، بحيث انتصر الصليبيون انتصارا كاسحا ، فاستولوا على الساحل الشامى كله ما عدا عسقلان وعلى كثير من البلاد الداخلية فى الجزيرة حتى وصلوا الى العريش على حدود مصر كما يقول ابن الأثير .

والمرحلة الثانية : وتبدأ من سنة ٥٢١ حتى سنة ٥٦٩ ، ومع أن الحملة الصليبية الثانية كانت فى هذه المرحلة ، الا أن المرحلة كانت مرحلة المد الاسلامى والانحسار الصليبى ، فقد كانت مرحلة اليقظة الاسلامية على يد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، فقد استرد كل منهما كثيرا من البلاد التى كانت فى يد الصليبيين ، وأهمها مدينة الرها التى كانت أول امارة صليبية أسسها الصليبيون فى الشام ، فاستولى عليها عماد الدين فى سنة ٥٣٩ كذلك استولى نور الدين محمود على كل من دمشق ومصر بعد أن بلغتا حدا كبيرا من الضعف فحال بذلك دون سقوطهما فى أيدى الصليبيين .

والمرحلة الثالثة : وتبدأ من سنة ٥٧٠ حتى سنة ٥٨٩ ، وفيها كانت الحملة الصليبية الثالثة ؛ وزعيم هذه المرحلة هو صلاح الدين الأيوبى ، وهى امتداد للمرحلة الثانية (مد اسلامى وانحسار صليبى) فقد استرد صلاح الدين من الصليبيين كثيرا من بلاد الساحل التى فى يد الصليبيين كذلك استرد بيت المقدس منهم ، الا أن المرحلة انتهت كما لا يحب المسلمون وكما اشتهى الصليبيون ، حيث تنازل صلاح الدين لملك انجلترا عن كثير من البلاد الساحلية التى كان قد استردها ، وذلك بموجب الصلح الذى عقده مع الملك فى سنة ٥٨٨ هـ .

والمرحلة الرابعة : وتبدأ من سنة ٥٩٠ حتى سنة ٦٢٨ ، وهى مرحلة خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين . وهذه المرحلة تشبه الى حد كبير المرحلة الأولى ، مرحلة المد الصليبى

والانحسار الاسلامى ، فقد انشغل الأيوبيون بالمنافسات الأسرية فيما بينهم من أجل التوسع الاقليمى ، بعد أن تقسمت الدولة الأيوبية الموحدة الى ممالك وامارات يحكم كل مملكة وامارة حاكم أيوبى مستقل ، فانتهز الصليبيون الفرصة وأخذوا يستردون كثيرا من البلاد التى استردها منهم صلاح الدين ومنها بيت المقدس .

واذا كان ابن الأثير ، قد صور الحادث الصليبى بأخباره — فى المراحل الأربع — فانه صوره أيضا بأسلوب وبطريقة عرض لا نجدهما عند غيره من المؤرخين سواء السابقين عليه أو اللاحقين بعده (١) . فقد قدم ابن الأثير تاريخ الحروب الصيلبية بأسلوب فيه حيوة ونشاط ، وذلك عن طريق انفعالاته وأحاسيسه وتعليقاته الجدية والساخرة ، وتنويهه بشجاعة الصليبيين ، ووصفه لأبطالهم ، وتحديده لمواطن الضعف والقوة عند المسلمين والصليبيين ، بالاضافة الى نقوده المستحسنة والمستنكرة لتصرفات بعض القادة المسلمين التى أدت الى نتائج حسنة أو سيئة .

ونلمس تطور انفعالات ابن الأثير منذ أن بدأ يؤرخ للحروب الصليبية حتى انتهى منه ، فقد كانت انفعالاته فى المرحلة الأولى انفعالات يائسة حزينة لغلبة الصليبيين على المسلمين ، بينما نجده فى المرحلتين الثانية والثالثة ينفعل انفعال السرور والغبطة لغلبة المسلمين على الصليبيين ، ولكنه فى المرحلة الرابعة ينفعل حزنا .

---

(١) فيما عدا سبط ابن الجوزى ، صاحب « مرآة الزمان » فانه صور أحداث الفترة التى عاصرها بالأخبار وبتعليقاته وبوصف مشاعر الناس وأحاسيسهم تصويرا واضحا .

فمن انفعالاته الحزينة ، بسبب تفرق ملوك الاسلام وقتالهم بعضهم بعضا بينما الصليبيون يوالون الاستيلاء على البلاد ، قوله تحت عنوان (ذكر غزو سقمان وجكرمش الفرنج) سنة ٤٩٧ : « .. ولما استطال الفرنج — خذلهم الله تعالى — بما ملكوه من بلاد الاسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الاسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا ، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء ، واختلفت الأهواء ، وتمزقت الأحوال .. » . وأيضا انفعاله لاستيلاء الصليبيين على مدينة صور سنة ٥١٨ : « .. وكان فتحه (أى فتح البلد) وهنا عظيما على المسلمين ، فانه من أحصن البلاد وأمنعها ، فالله يعيده الى الاسلام ، ويقر أعين المسلمين بفتحه بمحمد وآله » .

أما انفعالاته السارة ، فتبدو واضحة أيضا ، عند استرداد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين فى سنة ٥٨٣ ، فانه يصف المعركة التى دارت بين الخصمين ، والتى أظهر كل منهما فيها أروع ما لديه من فن الحرب ، والحماس ، والصبر فى القتال ، والاستهانة بالحياة ، حيث يصف حماس الصليبيين وتجمعهم من كل مكان لحرب صلاح الدين ، كذلك يصف حماس المسلمين ، حتى اذا انتهى القتال بسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، يظهر ابن الأثير فرحته ، ويشيد بصلاح الدين ، فيقول : « .. فعاد الاسلام هناك غضا طريا ، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخرا وشرفا » . وينفعل أيضا انفعال الغبطة ، لاستعادة المسلمين دمياط فى سنة ٦١٨ بعد أن احتلها الصليبيون أربع سنين ، فيقول : « وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ، ورده الى أربابه ، وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم ، فانهم كانت غاية أمانيهم (أى أمانى المسلمين) أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم

بالشام ليعيدوا دمياط ، فرزقهم الله اعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها ، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم شر التتر ، على ما ذكره ان شاء الله تعالى » .

وينوه ابن الأثير بشجاعة ومميزات الأمراء الصليبيين تنويها مشوبا بالحسرة ، مثال ذلك اشادته ب « هنفرى » أحد القواد الصليبيين ، وقد قتل فى معركة دارت بين الصليبيين والمسلمين ، فيقول عن قتلى الصليبيين « وقتل من مقدميهم جماعة منهم « هنفرى » وما أدراك ما هنفرى ، كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين ، فأراح الله من شره » . ويصف « ارناط » الصليبى صاحب « الكرك » بأنه « كان من شياطين الفرنج ومردتهم ، وأشدهم عداوة للمسلمين » . ويصف ريتشارد ملك انجلترا بقوله : « وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا ، وجلدا وصبرا ، وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثيل لها » .

ولم يقتصر ابن الأثير على الأحداث الظاهرة والأخبار العادية ، وانما كان يحرص على الوصول الى أخبار الصليبيين أنفسهم التى لا يعرفها الا الخواص ، مثال ذلك ، ما ذكره فى خبر (ذكر وقعة المسلمين والفرنج على عكا) سنة ٥٨٦ ، « ثم ان الفرنج وصلهم كتاب من بابا — وهو كبيرهم الذين يصدون عن أمره ، وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف ، والمحرم عندهم من حرمه ، والمقرب من قربه ، وهو صاحب رومية الكبرى — يأمرهم بملازمة ماهمْ بصدده ، ويعلمهم أنه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ، ويعلمهم بوصول الامداد اليهم ، فازدادوا قوة وطمعا » . كذلك يذكر أنه لما وصل ملك انجلترا الى الشام ، عزم على الاستيلاء على عسقلان

– وهى بيد المسلمين – فسار اليها ، واستولى فى طريقه على بعض المدن الساحلية حتى يافا ، عندئذ خرب صلاح الدين عسقلان خوفا من سقوطها فى يد الصليبيين ، فلما بلغ صاحب « صور » الصليبى ، تخريب عسقلان ، أرسل الى الملك – وكان بينهما عداوة – يقول له : « مثلك لا ينبغى أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك ؟ يا جاهل ، لما بلغك أنه قد شرع فى تخريبها ، كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار ، فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح ، لو اننى معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها برج واحد » . فهذان الخبران – وغيرهما كثير – يعنى أن ابن الأثير كان فى استطاعته معرفة أخبار الصليبيين الخاصة ، اما عن طريقهم مباشرة أو عن طريق غيرهم ممن لهم صلة بهم .

الغزو التترى :

وأما الغزو التترى فقد عاصره ابن الأثير من بدايته فى سنة ٦١٦ ، وقد توفى ابن الأثير سنة ٦٣٠ ، وما زال التتر فى البلاد الاسلامية يستولون على بعضها ويدمرون بعضها الآخر ، حتى سقطت بغداد فى سنة ٦٥٦ ، فكان القضاء على الخلافة العباسية .

وتاريخ ابن الأثير للغزو التترى لا يقل روعة عن تأريخه للحروب الصليبية ، وقد بلغت دقة أخباره الى حد أثارت اعجاب معاصره النسوى(١) الذى عاش فى قلب الأحداث ، حيث كان

---

(١) هو محمد بن أحمد النسوى ، توفى سنة ٦٣٩ ، وقد ألف كتابا عن السلطان جلال الدين منكبرتى بعنوان « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » دون فيه أخبار الغزو كشاهد عيان حتى وفاة السلطان .

موظفا عند السلطان جلال الدين منكبرتى ـ الذى كان ، بعد أبيه ـ أقوى القوى الاسلامية التى واجهت التتر ـ بوظيفة كاتب الانشاء ، فقال فى مقدمة كتابه : « ورأيت الكامل « من تأليف على بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ، يتضمن من أحاديث الأمم عموما ، وغرائب أخبار العجم خصوصا ما شذ عن غيره ، وأنصف ـ لعمرى ـ فى تسميته كاملا ما ألف ، ولم أستبعد ظفره بشىء من تواريخهم المؤلفة بلغتهم ، والا فما الأمر مما يؤخذ بالقياس ، والذى أودعه تأليفه منها أكثر من أن تتلقف من أفواه الناس ، ولما أفضت بى المطالعة الى ما تضمنه من أخبار السلطان الأعظم علاء الدنيا والدين أبى الفتح محمد بن تكش بن ايل أرسلان ابن آتسز بن محمد بن نوشتكين ، متبعها بنبذة من تصاريف الدهر وتدابير الزمان بولده السعيد الشهيد جلال الدين منكبرتى ـ سقى الله ثراهما ، وجعل الجنة مثواهما ـ ووجدته لم يفته من معظمات الأمور جليل ، ولم يتجاوز الصحة الا قليل ، قلت : لله در مقيم بديار الشام (يقصد الموصل) دعته همته الى ضبط ما حدث من الوقائع بأعالى بلاد الصين ، وأعمال ديار الهند » . وهذه شهادة من معاصر مشارك للغزو بأهمية أخبار ابن الأثير عن التتر .

وقد كان الغزو التترى صدمة عنيفة لابن الأثير أثارت مشاعره لما اقترفه التتر من الفظائع فى بلاد المشرق من قتل وتخريب وتدمير ونهب بحيث أذهلته ، فأحجم عن تدوين أخبارهم لبشاعة ما اقترفوه فى حق المسلمين والبلاد الاسلامية ، واستنكارا لموقف الملوك المسلمين المتخاذلين من هذه « الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى » ـ على حد تعبيره ـ ولكنه لم يجد مناصا من تدوين أخبارهم تحت الحاح أصحابه عليه من ناحية ، ولأنه وجد أن عدم تسطيرها لا يجدى نفعا من ناحية أخرى ، ولكنه أبى أن

يدون أخبار التتر دون أن ينفس عن نفسه ، ودون أن يدلى برأيه فى احداثهم العظام ، فبدأ تأريخه بقوله : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن ، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ؛ ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس وما بنو اسرائيل بالنسبة لمن قتلوا ؟ فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ؛ وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح » . ثم يلخص ابن الأثير خبر خروج التتر من بلادهم ، وانتشارهم فى بلاد الاسلام وما ارتكبوه من الفظائع ، وذلك قبل أن يذكر أخبارهم مفصلة على السنين ، فيقول : « فان قوما خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان ، مثل كاشغر وبلاساغون ، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر ، مثل : سمرقند ،

وبخارا وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلهـا ما نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ، ثم بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج الا الشريد النادر فى أقل من سنة ؟ هذا ما لم يسمع بمثله — ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا الى دربند شروان ، فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم ، وعبروا عندها الى بلد اللان واللكز ، ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة ، فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا . ثم قصدوا بلاد قفجاق — وهم أكثر الترك عددا — فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقون الى الغياض ورءوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها ، فعلوا هذا فى أسرع زمان ، ولم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير . ومضى طائفة أخرى — غير هذه الطائفة — الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد ؛ هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر ، الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا ، لم يملكها فى هذه السرعة ، انما ملكها فى نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا ، انما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض (؟) وأحسنه وأكثره . عمارة وأهلا ، وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ، ولم يبت أحد فى البـــلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه » .

وقد خشى ابن الأثير أن يتهم بالمبالغة فيما دونه من أخبار الزحف التترى السريع حتى طووا بلاد المشرق الاسلامى فى سنة واحدة ، فيؤكد صدق ما يرويه بقوله : « ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه ، طائفة تخرج من

حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد أرمينية من هذه الناحية ، ويجاوزون العراق من ناحية همذان ، وتالله لا أشك أن من يجىء بعدنا اذا بعد به العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينـــكرها ويستبعدها ـ والحق بيده ـ فمتى استبعد ذلك ، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى أزماننا هذه ، فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة ، استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسر الله للمســـلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو الى عظيم » .

ومما يزيد فى نكد ابن الأثير ويرمضه ، أنه فى الوقت الذى أخذ فيه التتر يزحفون على بلاد الاسلام من الشرق ، كان قلب العالم الاسلامى ـ بلاد الشام ومصر ـ يقاسى من الصليبيين وأهوالهم ـ وكأن المسلمين قد وقعوا بين شقى الرحى ، التتر من الشرق ، والصليبيون من الغرب ، والملوك المسلمون ، فى الشرق وفى الشام ومصر ، متهالكون على ملذاتهم أو خلافاتهم ، وكأن الأمر لا يعنيهم فينفعل انفعالات مؤثرة صاخبة يحمل على هؤلاء الملوك ويجرحهم ، فيقول : « ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم ، منها : هؤلاء التتر قبحهم الله ، أقبلوا من الشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها ـ وستراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ـ ومنها خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من الغرب الى الشام وقصدهم ديار وملكهم ثغر دمياط منها ، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها أن يملكوها ، لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم ـ وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ـ ، ومنها : أن الذى سلم من هاتين الطائفتين ، فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق ـ وقد ذكرناه أيضا ـ فانا لله وانا اليه راجعون ، نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده ، فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معـدوم ،

(وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) » .

ويحمل ابن الأثير ، السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، مسئولية نجاح زحف التتر عند أول خروجهم من بلادهم لسوء سياسته ، وطمعه فى ممالك الملوك المسلمين المجاورين له فاستولى عليهـا فأضمروا له العداء ، فلما زحف التتر على البلاد لم يتعاونوا معه ولم يستطع صدهم وحده ، يقول ابن الأثير : « فان هؤلاء التتر ، انما استقام لهم الأمر لعدم المانع ، وسبب عدمه ان خوارزم شاه محمدا كان قد استولى على البلاد ، وقتل ملوكهم وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) » ، ولذلك لم يستطع خوارزم شاه الصمود أمام التتر فأخذ يفر منهم من بلد الى أخرى غربا ، حتى احتمى بقلعة له فى بحر طبرستان حيث توفى بها فى سنة ٦١٧ . ولما توفى ، خلفه ابنه جلال الدين منكبرتى ، ولم يستطع بدوره الصمود فى وجه التتر ، انما فر منهم الى الهند وظل بها حتى سنة ٦٢٢ ، ولما عاد الى بلاده عاود سيرة والده فى معاداة الأمراء المجاورين له بالاستيلاء على اماراتهم حتى انه اعتدى على أملاك الخليفة فجلب على نفسه عداوتهم ، فتخلوا عنه ، ولذلك يحمل عليه ابن الأثير حمـلة عنيفة فيقول : « وكان جلال الدين سيىء السيرة ، قبيح التدبير لملكه ، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته ، فمن ذلك أنه أول ما ظهر بأصفهان (بعد عودته من الهند) جمع العساكر وقصد خوزستان ، فحصر مدينة ششتر – وهى للخليفة – فحصرها ، وسار الى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر – وهى للخليفة أيضا – ؛ ثم ملك أذربيجان – وهى لأوزبك بن البهلوان فملكها ، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم ؛ ثم عادى الملك الأشرف (الأيوبى) صاحب خلاط ؛ ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم ؛ وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر وقرر عليهم

وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم ، فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده » .

ويحمل أيضا على أوزبك بن البهلوان (قبل أن يستولى جلال الدين على بلاده) لتقصيره فى قتال التتر فيقول : « وكان (أوزبك) أميرا متخلفا ، لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا ونهارا ، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر . واذا سمع هيعة طار مجفلا منها ، وله جميع أذربيجان وأران ، وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها » .

كذلك يحمل على الملوك جميعا « فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصرا من عنده ، فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ، ولا نصرة فى الدين ، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته ، وهذا أخوف عندى من العدو » . ولما دخل التتر ديار بكر والجزيرة وأربل وخلاط أفسدوا فيها ، « ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس ، وملوك الاسلام منحجرون فى الأثقاب » .

وقد أثار ابن الأثير فى تاريخه للغزو التترى مشكلة خطيرة ، وذلك بتدوينه ما شاع فى ذلك الوقت من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله هو الذى استدعاهم لمحاربة السلطان علاء الدين خوارزم شاه الذى كان يثقل عليه ويطلب منه الاعتراف به سلطانا ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، وقد ذكر ابن الأثير هذا الاتهام مرتين ، المرة الأولى فى بداية تدوينه أخبار التتر ، ولكنه لم يصرح باسم الخليفة وانما قال ـ بعد أن ذكر أن سبب خروجهم من بلادهم ، هو قتل علاء الدين لبعض التجار التابعين لجنكزخان عندما وردوا بلاده : « وقد قيل فى خروجهم غير هذا مما لا يمكن أن يودع فى بطون الدفاتر » ، وفى المرة الثانية ، صرح بأنه الخليفة ، وذلك فى ترجمته له ، فيقول ، ان الخليفة

« كان قبيح السيرة » ، ثم يقول : « وان كان (أى الخليفة) سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا ، من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك ، فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم » . ويذكر ابن واصل أيضا الخلاف الذى حدث بين الخليفة وبين السلطان علاء الدين وتهديد الخليفة له ، فيقول : « قلت : وقد بلغنى أن الخليفة الامام الناصر لدين الله كتب الى علاء الدين خوارزم شاه كتابا ، وضمنه بيتا يهدده فيه وهو :

ستعلم ان حانت من الدهر لفتة
عمود دواتى أم سنانك أقوم

وهذه قضية تستدعى البحث والدراسة الدقيقة للوصول الى الحقيقة .

وقد دون ابن الأثير أخبار الغزو بوعى وفهم لتحركات التتر وسبب انتشارهم فى البلاد انتشارا سريعا ، فقد تنبه الى أن التتر قسموا جيشهم الكبير قسمين : قسم خصص لفتح بلاد تركستان واقليم ما وراء النهر ، وقسم خصص لفتح خراسان والعراق غربا ، ولذلك يسمى ابن الأثير هذا القسم من الجيش ب « التتر المغربة » تمييزا لهم عن القسم الأول « لأنهم هم الذين أوغلوا فى البلاد » ، ثم أخذ فى تدوين أخبار كل قسم على حدة ، فدون أخبار زحف القسم الأول تحت عنوان (ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه) فذكر أخبار سقوط بخارا وسمرقند . ثم دون أخبار القسم الثانى — التتر المغربة — تحت عنوان (ذكر مسير التتر الى خوارزم شاه وانهزامه وموته) فذكر الأقاليم والبلاد التى سقطت فى أيديهم اقليما اقليما وبلدا بلدا ، حتى سنة ٦٢٨ . كذلك ذكر اغارة التتر على البلاد المجاورة

للمسلمين ، مثل : الكرج ، واللان ، وقفجـــاق ، والروس ، وبلغار .

وحرص ابن الأثير أيضا على وصف عمليـات التتر الحربية ، وقدرتهم على تذليل الصعاب فى انتقالاتهم من مكان الى مكان ، وفى قدرتهم أيضا على احـــكام حصار المدن الحصـــينة حتى تسقط فى أيديهم ، وهذا الوصف يبرز فى الوقت نفسه جهود المســـلمين واستماتتهم فى الدفاع حتى تنفد قواهم ، من ذلك ، ما ذكره من أن التتر لما أرادوا أن يعبروا نهر جيحون من سمرقند الى الضفة الأخرى ، لم يجدوا سفنا ليعبروا عليها « فعملوا من الخشب مثـــل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ، ويضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض من الخشب مشدودة اليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجـل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة » .

ومن ذلك أيضا ما ذكره عن حصارهم مدينة « شماخى » من بلاد « دربند شروان » ، وقد كانت أسوار المدينة عالية ، والمدافعون عنها مستميتون فى القتال صابرون على الحصار ، فجمع التتر كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى النـــاس منهم ، أى من التتر ، وممن قتل من غيرهم ، وألقوا بعضـــــه فوق بعض بجانب الأسوار حتى صار مثل التل ، وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينـة وظلوا يقاتلون أهل المدينة حتى استولى عليها .

وحاصر التتر قلعـــــة « منصور كوه » فى خراسان ، ويقول ابن الأثير عنها انها قلعة لا ترام علوا وارتفاعا ، وبما رجال شجعان يقاتلون ، وظلوا محاصرين لها ستة أشهر يقاتلون ولا يظفرون منها بطائل ، فأرسلوا الى جنكيزخان ــ وكان بسمرقند ــ يعرفونه عجزهم عن امتلاكها ، فحضر بنفسه ومعه عدد كبير من المقاتلة ، وظل محاصرا القلعة يقاتل حاميتها مدة أربعة أشهر أخرى حتى قتل من التتر عليها

خـــلق كثير ، « فلما رأى ملكهم ذلك ، أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ، ففعلوا ذلك ، وصاروا يعملون صفا من خشب ، وفوقه صفا من تراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازى القلعة » فلما رأت الحامية ذلك ، خافت وفتحت أبواب القلعة واندفع الفرسان هاربين ، وأما الرجالة فقد تخطفتهم سيوف التتر ، واستولى التتر على القلعة .

وقد يظن أن تصوير ابن الأثير ، التتر بصورة الهمج المخربين الوالغين فى الدماء مبالغا فيه ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن معاصرة النسوى الذى عاش فى صميم الأحداث كما سبق أن ذكرنا ، يصورهم كما صورهم ابن الأثير ، وهذا ما قاله النسوى عما فعل التتر بأهل مدينة « نسا » بعد أن استولوا عليها ، قال : ان التتر بعـــد أن استولوا على المدينة أخرجوا أهلها الى الفضاء ، « ثم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم بعضا ، ففعلوا ذلك خذلانا ، والا لو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدوا من غير قتال ـ والجبل قريب ـ لنجا أكثرهم ، فحين كتفوا جاءوا اليهم بالقوس وأضجعوهم على العداء ، وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء ، فمن دماء مسفوكة ، وستور مهتوكة ، وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة ، وكان عدة من قتل بلسان من أهلها ومن انضوى اليهم من الغرباء ورعية بلدها سبعين ألفا ، وهى كورة من كور خراسان » (١) .

وبمناسبة الحديث عن النسوى ، نذكر أن هناك اختلافات فى بعض الأخبار المشتركة بينه وبين ابن الأثير ، والصواب ـ فيمـــا يرجح ـ هو فى جانب النسوى . لأنه الأقرب الى ميادين الأحداث . كذلك نجد عند النسوى أخبارا لم يذكرها ابن الأثير ، وهى أخبار ليست عن الغزو ذاته ، وانما هى أخبار شخصية عن الســـلطان علاء الدين وابنه جلال الدين ، كان لأحـــداثها أثر فى انتصارهما

---

(١) **النسوى** : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص/١١٥ .

وهزائمهما ، وهى أخبار مفيدة للباحث الحديث حيث تساعده على فهم الأحداث فهما جيدا ٠

* * *

ومصادر ابن الأثير عن الزحف التترى تقتصر على المعاصرين شهود العيان ، وعلى الرسائل التى تصل من البلاد المغزوة الى الموصل ويوفق فى الاطلاع عليها ، ومنها مكاتبات التجار الى عملائهم أو أصدقائهم فيها ٠ وشهود العيان ، هم أبناء البلاد المغزوة الفارون من وجه الغزاة ويصلون الى الموصل ويجتمع بهم ابن الأثير ، فهو ينقل خبر استيلاء التتر على بخارا وسمرقند عن أحد فقهاء بخارا كان التتر قد أسروه عندما استولوا على المدينة وأخذوه معهم الى سمرقند ؛ ثم نجا منهم ووصل الى الموصل ، ولكن تصل ابن الأثير رواية أخرى عن الخبر نفسه من أحد التجار ، فيها بعض الاختلافات فى التفاصيل عن رواية الفقيه ، فيثق ابن الأثير برواية التاجر فيقول : « وكان هذا هو الصحيح ، فان الفقيه كان حينئذ مأسورا ، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ، ووصل خبر خوارزم شاه ، ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ٠٠٠ » ٠ كذلك نقل من رواة لم يذكر أسماءهم ، وانما يقول : « حكى لى بعض التجار » و « حكى لى رجل منهم » و « لقد بلغنى » و « حكى لى رجل » و « سمعت بعض أهلها يقول » ، وعن طريق المهاجرين ، علم أهل الموصل بوصول التتر الى مدينة أربل ــ القريبة من الموصل ــ فانتشر الخوف بين الموصليين ، حيث يقول ابن الأثير : « ووصل الخبر الينا بذلك بالموصل ، فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف » ٠

* * *

بقى نقطة هامة نختم بها حديثنا عن ابن الأثير ، وهى عن الهجوم الذى شنه بعض الأساتذة (١) على ابن الأثير ، متأثرين بآراء بعض الأجانب عن تأريخ ابن الأثير لصلاح الدين الأيوبى ، فقالوا : ان ميل ابن الأثير للزنكيين دفعه الى التحيز لهم ، فلم يذكر عنهم الا الأخبار الطيبة ، بينما تحامل على صلاح الدين فشهر به - اشباعا لنزعة الحقد عليه - لاستيلائه على الدولة الزنكية وتكوين دولته بعد وفاة نور الدين محمود - ، وذلك بأن :

- صور صلاح الدين بصورة الطامع فى تكوين امبراطورية تحمل اسمه لاشباع أطماعه العائلية .

- ونقد بعض تصرفاته الحربية .

- ثم حور روايات مصادره عن صلاح الدين وأغفل ذكرها لتضليل قرائه .

ونحن ، وان كنا ناقشنا هذا الهجوم بتوسع فى دراستنا الأخرى الواسعة لكتاب « الكامل » ، فاننا نجمل هنا ردنا على هذه الاتهامات ، استيفاء لموضوعنا عن ابن الأثير .

فأما ميل ابن الأثير للزنكيين ، فهذه حقيقة واقعة لا شك فيها ، ومن حق ابن الأثير أن يميل للزنكيين ، وأن يحبهم وأن يعجب بهم ويقدرهم ، والا كان عاقا ومتنكرا لأياد أحسنت اليه والى أسرته ، ورفعتهم الى مكانة عالية فى البلاط الموصلى وفى مجتمعهم ، وقد

---

(١) الدكتور نظير سعداوى فى كتابه « المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى » ، والدكتور جمال الدين الشيال فى كتاب « مفرج الكروب » لابن واصل والذى يحققه الدكتور الشيال ، والدكتور الباز العرينى فى كتابه « مؤرخو الحروب الصليبية » ، والدكتور سعيد عاشور فى كتابه « الناصر صلاح الدين » المنشور فى مجموعة « أعلام العرب » .

صرح ابن الأثير بفضل الزنكيين عليهم فى مقدمة كتابه « التاريخ الباهر » كما سبق أن ذكرنا ذلك فى ترجمتنا له فى الفصل الثانى ، وكذلك فى الفصل الثالث عند تعريفنا بالكتاب . أما أن ابن الأثير لم يذكر عن الزنكيين الا الأخبار الطيبة ، فهو مبالغة من المهاجمين تنفيها أخبار ابن الأثير نفسه عن الزنكيين ، سواء فى كتابه « التاريخ الباهر » أو كتابه « الكامل فى التاريخ » . حقيقة أن ابن الأثير أكثر من مدح الزنكيين فى كتابه « التاريخ الباهر » ، وقد قصد ابن الأثير بهذا المديح التعبير عن رأيه فيهم ، واظهار تقديره للدور البطولى الذى قام به كل من عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، وأيضا لحسن سياستهم الداخلية ورضاء شعبهم عنهم ، ومع ذلك ، فقد كانت تتغلب عليه طبيعته الناقدة ، فنقد بعض الملوك منهم نقدا لاذعا ، كما بينا ذلك فى حديثنا عن الكتاب . وأما فى كتابه « الكامل » ، فقد ذكر بصراحة — وبلا مواربة — ما عرفه من المآخذ عن عماد الدين وغيره من الملوك الزنكيين ، مثال ذلك ، ما ذكره عن استيلاء عماد الدين على مدينة حماة غدرا بصاحبها بعد أن قطع له على نفسه العهود بعدم خيانته ؛ كذلك غدره بحامية بعلبك بعد أن أمنها ، ثم قتل رجالها بعد أن استسلمت له ، « فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه » كما يقول ابن الأثير . ووصف سيف الدين غازى (الثانى) بالجبن ، ونقده أيضا لقبضه على وزيره جلال الدين (سنة ٥٧٣) « لغير جرم ولا عجز ولا تقصير ، بل لعجز سيف الدين ... » . كذلك نقد عز الدين مسعود لقبضه على مجاهد الدين قايماز ، « واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر الى مضرة صاحبه ... وهو (مجاهد الدين) على الحقيقة الملك والاسم لعز الدين ... » . ولولا الاطالة لذكرنا كثيرا من النقد الذى وجهه ابن الأثير للملوك الزنكيين ، فهم يتفق هذا النقد وقول المهاجمين بأن ابن الأثير لم يذكر عنهم الا الأخبار الطيبة ؟ .

وأما أن ابن الأثير صور صلاح الدين بصورة الطامع فى تكوين امبراطورية تحمل اسـمه ، فان ابن الأثير لم يزد على أن ذكر تصرفات صلاح الدين مع الزنكيين خلفاء نور الدين بعد وفاته فى سنة ٥٦٩ه ، ومنها حروبه المستمرة معهم للاستيلاء على ما بأيديهم من البلاد ، فما إن حلت سنة ٥٧٩ حتى كان استولى على البـلاد الزنكية فى الشام والجزيرة ، ما عدا مدينة الموصل التى خضع صاحبها له فى سنة ٥٨١ بعد قتال متكرر . وحروب صلاح الدين مع الزنكيين التى ذكرها ابن الأثير ، يتفق فيها معه كل المعـاصرين لصلاح الدين ، وهم : العماد الكاتب ، وابن شداد ، وابن أبى طى ، — وان كان ابن الأثير يختلف مع بعضـهم فى تفاصيل بعض الأخبار — . وهذا ما ذكره ابن أبى طى — على سبيل المثال — من قول صلاح الدين عندما استولى على مدينـة حلب من صاحبها عماد الدين زنكى (الثانى) : « والله ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة ، والآن قد تبينت أننى أملك البلاد ، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت » . ويفهم من هجوم المهـاجمين ، أنهم يريدون تنزيه صـلاح الدين عن الطموح فى تـكوين دولة أو امبراطورية تحمل اسمه ، وفى رأينا أنهم أسرفوا فى حسن الظن بصلاح الدين وزهده عن المطامع والطموح كاسرافهم فى انكارهم على ابن الأثير ميله للزنكيين ، متناسين أن صلاح الدين كان متأثرا بطابع عصره وتقاليده ، هذا العصر الذى أصدق وصف له هو « عصر الغلبة » أى العصر الذى كان الحكم فيه للغالب ، فأيما صاحب منصب يجد فى نفسه القدرة على تحسين مركزه يقدم عليه ، ويبذل أقصى ما يستطيع لتحقيق غرضه ، ولا يتورع عن الوصول اليه بشـتى الوسائل والسـبل ، بالدس والتآمر وبالقتل والقتال ، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، وأقرب مثل لدينا ، هو تكوين الدولة الزنكية ذاتها والتى كان صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه قائدين فى جيوشها ، فقد كانت الدولة فى أول أمرها عبارة عن

مدينة الموصل التى ولى عماد الدين زنكى امرتها من قبل السلطان السلجوقى فأخذ عماد الدين - المتطلع الطموح - يعمل على توسيع منطقة حكمه ونفوذه حتى نجح بالرغم من اثارته عليه عداوة الخليفة العباسى ، والسلطان السلجوقى ، وأمراء الجزيرة ، وصاحب دمشق ، أثار عليه هؤلاء جميعا لأنه لم يقنع بالموصل ، وانما رنا الى تكوين دولة واسعة الأرجاء ، ثم لما توفى عماد الدين ، وخلفه ابناه سيف الدين غازى ونور الدين محمود ، أخذ نور الدين بدوره يعمل على التوسع الاقليمى لدولته ، وبسط نفوذه على من يجاوره من الأمراء ، وأخذ يحارب صاحب دمشق حتى استولى عليها ، ثم استولى على مصر ، ولو طال العمر بأخيه سيف الدين غازى لتوسع فى منطقة الجزيرة أيضا ، فهل كان صلاح الدين أقل من عماد الدين ونور الدين طموحا ؟ أم هو أزهد منهما فى الملك والسلطان ؟ ثم دليل آخر ، وهو أن خلفاء صلاح الدين ، وهم أبناؤه وأخوته طبقوا تقاليد عصرهم « عصر الغلبة » فيما بينهم أنفسهم بعد وفاته . فحارب الأخ أخاه والعم ابن أخيه ، منهم من كان يطمع فى زعامة البيت الأيوبى ، ومنهم من كان يعمل على التوسع الاقليمى لامارته أو مملكته غير ناظرين الى قرابة الدم أو مقيمين لها أى حساب ، فما دام الحال هكذا ، فلماذا يستثنى صلاح الدين من تأثير تقاليد عصره عليه ، ويكون وحده العف عن المطامع والطموح ، وأبلغ من هذا فى التساؤل ، اذا كان صلاح الدين لم يعمل بنفسه فى تكوين الدولة التى أنشأها بقوة السيف ، فكيف كونها ؟ هل كونها سلما ، أم هل ورثها بوصية من نور الدين - ونور الدين لم يعينه حتى وصيا على ابنه القاصر الصالح اسماعيل كما تثبت ذلك الوثائق الأيوبية ، أم تنازل له خلفاء نور الدين عن الدولة عن طواعية ، ورضوا به خلفا لنور الدين ؟ ثم اذن ما معنى أخبار صراعه وحروبه مع خلفاء نور الدين ، هذه الحروب التى دونها المعاصرون لصلاح الدين ، العماد ، وابن شداد ، وابن أبى طى ؟ وقد ظهرت

كتبهم قبل أن يظهر كتاب ابن الأثير • ومع ذلك ، فان فكرة تكوين دوله ايوبيه لم تظهر عند صلاح الدين وحده ، وانما سبقه فى ذلك أبوه وعمه أسد الدين ، وهذا ما فصلناه بتوسع فى دراستنا الواسعة عن كتاب « الكامل » •

وأما نقد ابن الأثير لبعض تصرفات صلاح الدين الحربية التى أدت الى نتائج سيئة ، فان ابن الأثير لم يزد عن أن عامل صلاح الدين كما عامل شخصياته التاريخية التى أرخها فى كتابه ، فنقده كما نقدهم ، وقد سبق أن تحدثنا عن ابن الأثير الناقد ، ولكن المهاجمين لم يتنبهوا الى طبيعة ابن الأثير الناقدة ، وانما انصرف ذهنهم فقط الى نقده لصلاح الدين وذلك لأنهم لم يعرفوا ابن الأثير الا عن طريق كتابته عن صلاح الدين • ولنر كيف استنكر الدكتور سعيد عاشور نقد ابن الأثير لصلاح الدين فى تصرفه فى مدينة « صور » الذى أدى الى فشله فى الاستيلاء عليها من الصليبيين ، حيث يقول ابن الأثير : « •• ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين ، فانه هو جهز اليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك ، كان يعطيهم الأمان ويسيرهم الى « صور » ، فصار فيها من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة ، وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤون اليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها ـ وسنذكر ان شاء الله ما صار اليه الأمر بعد ذلك ـ ليعلم أن الملك لا ينبغى أن يترك الحزم ـ وان ساعدته الأقدار ـ فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم وأعذر له عند الناس » • فماذا قال الدكتور سعيد عاشور عن صلاح الدين وصور ؟ لقد ذكر الدكتور عاشور ، صلاح الدين وصور ثلاث مرات فى كتابه (الناصر صلاح الدين) • المرة الأولى (ص / ١٩٨) ، استعرض فيها المدن التى

استولى عليها صلاح الدين من الصليبيين ، ثم قال : « وهنا نلاحظ أنه اذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز الساحلية فى جنوب بلاد الشام ، الا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا ، كما ترك لهم حرية البقاء أو الخروج ، فقصد معظمهم مدينة صور حيث تجمعت البقايا الصليبية المتخلفة عن مملكة بيت المقدس ، وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا **بعد أن اجتمع فيها كل افرنجى بقى فى الساحل** ، فتركها مؤقتا ، وآثر الانصراف الى غيرها » .

وقال فى المرة الثانية (ص / ٢١٤) ، فى معرض حديثه عما استولى عليه صلاح الدين من توابع مملكة بيت المقدس ، فقال : « وهكذا لم يبق من مملكة بيت المقدس فى قبضة الصليبيين غير « صور » **التى أخطأ صلاح الدين خطأ جسيما بعدم الاستيلاء عليها** عقب « عكا » وتركها تلك المدة لتتجمع فيها البقايا الصليبية التى خرجت من مختلف مدن وحصون مملكة بيت المقدس لتمد المدينة بحصانة بشرية الى جانب حصانتها الطبيعية » ، ويقول أيضا : « وعند استيلاء صلاح الدين على عكا ، كانت صور تابعة لرينو حاكم صيدا ، الذى كان مستعدا لتسليمها لصلاح الدين عندئذ ، ولكن صلاح الدين تأخر فى القيام بتلك العملية ، وصادف أن وصلت الى ميناء صور ، عندئذ ، فى منتصف يوليو سنة ١١٨٧ ، سفينة عليها الأمير كونراد دى مونتفرات لاجئا ، فرحب به أهل صور ، وأخذ يدعم تحصينات المدينة ، ويقوى الروح المعنوية بين الصليبيين فيها ، **حتى صار من العسير على صلاح الدين الاستيلاء عليها** ، وخاصة بعد أن تلقت بعض المعونات عن طريق البحر » .

وفى المرة الثالثة (ص / ٢٢١) ذكر حصار صلاح الدين لمدينة « صور » وفشله فى الحصار ، وأثر هذا الفشل عند المؤرخين المسلمين ، واستشهد بنقد ابن الأثير لصلاح الدين الذى ذكرناه

آنفا ، ثم يقول الدكتور عاشور معلقا على نقد ابن الأثير : « على أننا لا نريد أن ننساق وراء ابن الأثير فى مؤاخذته لصلاح الدين على مسألة صور ، **لأن موقف ابن الأثير بالذات من صلاح الدين معروف ، وهو موقف يتسم بالكراهية الواضحة** » ، ثم يقول مدافعـــا عن صلاح الدين : « ولعله من الانصاف أن نلتمس العذر لصلاح الدين فى أمر صور ، فقد كان من الصعب على الرجل أن يتخلى عن سماحته وتسامحه وكرم أخلاقه ، وهى الصفات الحميدة التى تحلى بها والتى خلدت اسمه فى تواريخ الغرب فضلا عن الشرق ، هذا بالاضافة الى الأشياء التى أحاطت بصلاح الدين أمام صور ، والتى يجب أن نقدرها ، وأهمها تعب رجاله ورغبة بعضهم فى الانصراف للراحة ، فضلا عن حصانة المدينة كما سبق أن ذكرنا » فاذا كان الأمر كذلك ، فلماذا آخذ الدكتور عاشور ــ فيما فات من الصفحات ــ صلاح الدين لخطئه فى عدم استيلائه على المدينة عقب استيلائه على عكا ، ولماذا نوه الدكتور عاشور بأثر تجمع الصليبيين ــ بكرم من صلاح الدين وسماحته وتسامحه ــ فى المدينة حتى ازدادت حصانة على حصانتها فاســتعصت عليه ، والتى حطمت ســـفنها ، سفن أســـطول صلاح الدين ــ كما يقول الدكتور نفسه (ص / ٢١٩) ، ويبدو أن الدكتور عاشور ، يبيح لنفسه أن ينقد صلاح الدين ويؤاخذه ، ويحرمه على ابن الأثير لموقفه من صلاح الدين الذى « يتسم بالكراهية الواضحة » فى الوقت الذى استعان فى مؤاخذته لصـــلاح الدين بنقد ابن الأثير لنفسه • وأما دفاعه عن صلاح الدين ، بعـــد أن آخذه وخطأه ، فاننا نتركه للقارىء ليحكم على قيمته كما يتراءى له •

وأما تحوير ابن الأثير أخبار مصادره عن صلاح الدين ، فالواقع أن هذا اتهام يحمل كثيرا من علامات التعجب ، وخاصة عندما يقول الدكتور سعداوى وهو يعدد عيوب تأريخ ابن الأثير لصلاح الدين : « ويعاب عليه كذلك أنه لم يذكر مصادره الأصلية التى اعتدى على رواياتها بالتعديل والتحريف الكثير ، لدرجة أصبح البحث عنها

من أشق الأمور وأعزها منالا ، ويبدو أنه كان متعمدا فى تضليل قرائه بدليل قوله فى هذا الصدد « ثم ذكر أصحاب التواريخ » و«حكى أن بعض الحكماء بالانساب والتواريخ ، قال» و«حكى لى والدي» و « حدثنى والدى عن بعض خواصه قال » ، وكان فى مقدوره أن يذكر أسماء هؤلاء جميعا وأسماء تواريخهم التى أشار اليها ، بدلا من ذكر تلك العبارات التى يشقى الباحث فى سبيل الكشف عنها ، والتى لا تفيد المؤرخ الحديث فى قليل أو كثير ، ولا تخدم البحث من جوانبه المتعددة » . فاذا كان الدكتور سعداوى لم يستطع معرفة مصادر ابن الأثير ، فكيف تأكد له أنه اعتدى عليها بالتحريف ؟ ونحن نفهم أن يتهم الدكتور سعداوى ابن الأثير بالاعتداء على مصادره بالتعديل والتحريف ، اذا كانت هذه المصادر تحت يده ، واذا أجرى مقابلة بين الأخبار المشتركة بينها وبين ابن الأثير ، وأشار الى التعديل والتحريف بأدلة وأسانيد . والدكتور العرينى الذى يتهم ابن الأثير بنفس الاتهام ، أكثر موضوعية من الدكتور سعداوى ، لأنه اتهم ابن الأثير بتحوير روايات العماد الكاتب وذكر أمثلة يؤيد بها اتهامه ، وان كنا نختلف معه فيها ، انما على كل حال ، أيد اتهامه بأمثلة ـ ظن أنها مقنعة ـ ولم يلق اتهاماته بعبارات انشائية كالدكتور سعداوى .

وقد ذكر الدكتور العرينى كثيرا من الأمثلة لتحوير ابن الأثير أخبار العماد ، ونحن نذكر مثالا ذكره الدكتور لنبين الى أى حد بلغ اسرافه واسراف المهاجمين فى تجريح ابن الأثير ، بحيث يتهمه بالغفلة وبالتزوير المحكم لاختلافه مع العماد فى تاريخ وقعتين حدثتا بين صلاح الدين وبين الصليبيين فى سنة ٥٧٣ ، ثقة من الدكتور بأن ابن الأثير نقلهما من العماد ، والوقعتان هما : وقعة « حماة » ووقعة « الرملة » . أما التحوير الذى يقول عنه الدكتور العرينى ، فهو أن العماد ذكر أن وقعة « حماة » كانت قبل وقعة « الرملة » ، فالوقعة

الأولى كانت فى ٢٠ جمادى الأولى ، وأما الوقعة الثانية فكانت فى مستهل جمادى الآخرة من نفس السنة ؛ أما ابن الأثير فانه ذكر أن الوقعتين كانتا فى شهر جمادى الأولى ، وأن وقعة الرملة كانت قبل وقعة حماة ، وبسبب هذا الاختلاف يعلل الدكتور العرينى تصرف ابن الأثير هذا « اما الى الغفلة ، فلم يدرك ابن الأثير حقيقة ما ورد فى « البرق » (كتاب العماد) من أن الهجوم على حماة تلى وقعة الرملة (١) ، واما الى تعمد تزوير محكم » ويلاحظ فى هذا الهجوم أن الدكتور العرينى لم يذكر الخطورة التى ترتبت عن تقديم وتأخير خبرى ابن الأثير عما عند العماد ، وبخاصة اذا عرفنا أن نتيجتى الوقعتين متفقتان عندهما ، فوقعة الرملة انهزم فيها صلاح الدين من الصليبيين ، وأما وقعة حماة فقد انتهت الى لا شىء • فما معنى اتهام ابن الأثير بالغفلة وبالتزوير المحكم ؟ هذا فى الوقت الذى نجد فيه ابن شداد — وهو مؤرخ معاصر للعماد ولابن الأثير — يتفق مع ابن الأثير فى أن وقعة « الرملة » كانت فى شهر جمادى الأولى ، ويختلف مع العماد الذى يقول انها كانت فى مستهل جمادى الآخرة ، وابن شداد والعماد كانا ملازمين لصلاح الدين فى الشام •

ودليل آخر على اسراف المهاجمين فى الهجوم على ابن الأثير ، ما ذكره الدكتور الشيال فى تعليقه على خبر ما ذكره ابن واصل فى كتابه (مفرج الكروب ، ج /١ ص /٢٣٧) عن « النفرة » التى حدثت بين نور الدين محمود وبين صلاح الدين الأيوبى بعد أن حل فى وزارة مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، وفى الخبر أن نور الدين عزم على اخراج صلاح الدين من مصر بالقوة ، فيعلق

---

(١) فى عبارة الدكتور العرينى اضطراب ظاهر ، وهو يقصد عكس ما يقول ، أى ان الهجوم على حماة كان قبل وقعة الرملة ، والا يكون ابن الأثير متفقا مع العماد •

الدكتور الشيال على الخبر ـ مشككا فى صحته ـ بقوله : « ولاحظ أن المصدر الأول لأخبار النفرة بين نور الدين وصلاح الدين هو ابن الأثير ، وهو يكرر الفكرة ويؤكدها كلما سنحت له فرصة » . والواقع أن ابن الأثير لم يكن المصدر الأول لأخبار النفرة ، وانما كان آخر المصادر فى المعاصرة لصلاح الدين ، وأن أول ما أذاعها هو العماد الكاتب فى كتابه « البرق الشامى » ، والعماد الكاتب توفى سنة ٥٩٧ ، أى قبل وفاة ابن الأثير بثلاث وثلاثين سنة ، كذلك أذاعها قبل ابن الأثير كل من ابن أبى طى الحلبى المتوفى سنة ٦٣٠ فى كتابه « كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين » ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو فى سيرة صلاح الدين ، واذا كان ابن أبى طى توفى فى نفس السنة التى توفى فيها ابن الأثير ، وأن ابن شداد توفى بعده بسنتين ، الا أن كتابيهما ظهرا قبل وفاتهما بسنوات طويلة ، لأن الكتابين فى سيرة صلاح الدين ، وليس من شك فى أن الرجلين كانا حريصين على اخراج كتابيهما بعد وفاة صلاح الدين مباشرة لعلاقتهما المستمرة بخلفائه الأيوبيين ؛ والفرق بين هؤلاء المؤرخين وبين ابن الأثير ، أن ابن الأثير انفرد عنهم بذكر مناقشة دارت فى اجتماع أسرى عقده صلاح الدين للتشاور فيما يصنع لما بلغه عزم نور الدين على اخراجه من مصر ، فماذا قال ابن أبى طى عن النفرة التى حدثت بين نور الدين وصلاح الدين ؟ قال ، انه لما أرسل نور الدين من قبله ابن القيسرانى لمحاسبة صلاح الدين على ما حصله من أموال مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية : « فصعب ذلك على السلطان (صلاح الدين) وأراد شق العصى ، لولا ما ثاب اليه من السكينة والعقل ، فأمر بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرانى » .

أما ابن شداد فانه قال : « ولقد حكى لى السلطان (صلاح الدين)

قال : « كان بلغنا عن نور الدين أنه على عزم قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ، ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شىء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته » .

أما ما ذكره العماد الكاتب ، فان النص الذى لدينا لا يبرز النفرة كما أبرزها ابن أبى طى وابن شداد ، وان كان يفهم منه أن نور الدين لم يكن راضيا عن صلاح الدين . قال العماد ، انه بعد أن قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، واستولى على قصر الخليفة الفاطمى ، أرسل الى نور الدين هدايا من تحف القصر لم تعجب نور الدين لأنه لم يكن فى حاجة اليها ، وانما كان فى حاجة الى مساعدة فعالة من صلاح الدين من المال والجند لقتال الصليبيين ، قال العماد : « وكان نور الدين ذكيا ، فطنا لوذعيا ، لا تشتبه عليه الأحوال ، ولا يتبهرج عليه الرجال ، ولا يتأهل لغير أهل منه الأفضال » ثم قال بعد أن ذكر أنواع الهدايا وكمياتها : « فشكر نور الدين همته (همة صلاح الدين) وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ، ولا تسد به خلة الاقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا الى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول فى مقابله ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبى تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته
على الحصا وبه فقر الى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة الى السداد ، ووفور الأعداد من الأجناد ، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والامداد ، فاستنزه وما استغزره ، واستقل المحمول فى جنب ما حزره ، وتروى فيما يدبره ، وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره » الخ وهكذا نرى أن ابن الأثير ليس هو المصدر الأول

لأخبار النفرة ، وانما هو آخر المصادر المعاصرة ، باعتبار أن كتابه ظهر بعد ظهور كتب العماد ، وابن أبى طى ، وابن شداد ٠

وعلى كل حال ، فان ما عرضنا من الهجوم على ابن الأثير وردنا عليه لا يعطى الصورة الكاملة للهجوم والرد ، ولذلك نحيل من يهمه الموضوع ، الى دراستنا المفصلة لكتاب « الكامل » ، ففيها الصورة الكاملة للهجوم والرد ٠

نماذج
من أخبار ابن الأثير فى « الكامل »

من أخبار بدء الخليقة :

(القول فى ابتداء الخلق وما كان أوله)

« صح فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه عبادة بن الصامت أنه سمعه يقول : « ان أول ما خلق الله تعالى ، القلم ، وقال له : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن » ٠ وروى نحو ذلك عن ابن عباس ٠ وقال محمد بن اسحاق : أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ، فجعل الظلمة ليلا أسود ، وجعل النور نهارا أبيض مضيئا ، والأول أصح للحديث ٠ وابن اسحاق لم يسند قوله الى أحد ٠ واعترض أبو جعفر (يقصد الطبرى) على نفسه بما روى سفيان عن أبى هاشم عن مجاهد عن ابن عباس انه قال : « ان الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا ، فكان أول ما خلق الله القلم ، فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة ، وأجاب بأن هذا الحديث ان كان صحيحا ، فقد رواه شعبه أيضا عن أبى هاشم ، ولم يقل فيه ان الله كان على عرشه ، روى أنه قال : أول ما خلق الله القلم » ٠

ومن أخبار آدم :

(ذكر الموضع الذى أهبط فيه آدم وحواء من الأرض)

« قيل : ثم ان الله تعالى أهبط آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذى خلقه فيه ، وهو يوم الجمعة مع زوجته حواء من السماء • فقال على وابن عباس وقتادة وأبو العالية : انه أهبط بالهند على جبل يقال له « نور » من أرض سرنديب ، وحـواء ب « جدة » • قال ابن عباس : فجاء فى طلبها ، فكان كلما وضع قدمه بموضع صار قرية ، ومن بين خطوتيه مفاوز ، فسار حتى أتى « جمعا » ، فازدلفت اليه حواء ، فلذلك سميت « المزدلفة » وتعارفا بعرفات فلذلك سميت « عرفات » واجتمعا بجمع فلذلك سميت « جمعا » ، وأهبطت الحية بأصفهان ، وابليس ب « ميسان » • وقيل : أهبط آدم بالبرية ، وابليس بالأبلة » •

من أخبار الأنبياء :

(ذكر هجرة ابراهيم عليه السلام ومن آمن معه)

« ثم ان ابراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم ، فخرج مهاجرا حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى ، كان اسمه سنان ابن علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح • وقيل : كان أخا الضحاك ، استعمله على مصر ، وكانت سارة من أحسن النساء وجها ، وكانت لا تعصى ابراهيم شيئا ، فلما وصفت لفرعون أرسل الى ابراهيم فقال : من هذه التى معك ؟ قال : أختى — يعنى فى الاسلام — وتخوف ان قال هى امرأتى أن يقتله • فقال له : « زينها وأرسلها الى ، فأمر بذلك ابراهيم فتزينت وأرسلهـا اليه ، فلما دخلت عليه أهوى بيده اليها — وكان ابراهيم حين أرسلها قام يصلى — فلما أهوى اليها أخذ أخذا شديدا • فقال لها : ادعى الله

ولا أضرك ، فدعت له ، فأرسل ، فأهوى اليها ، فأخذ أخذا شديدا ، فقال : ادعى الله ولا أضرك ، فدعت فأرسل ، ثم فعل ذلك الثالثة ، فذكر فى المرتين ، فدعا أدنى حجابه ، فقال : انك لم تأتنى بانسان ، وانك أتيتنى بشيطان ، أخرجها واعطها هاجر ، ففعل ، فأقبلت بهاجر ، فلما أحس ابراهيم بها ، انفتل من صلاته ، فقال : مهيم ؟ فقالت : كفى الله كيد الكافرين ، وأخدم هاجر » وكان أبو هريرة يقول : تلك أمكم يابنى ماء السماء • وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : لم يكذب ابراهيم الا ثلاث مرات : اثنتين فى ذات الله قوله « انى سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله فى سارة « هى أختى » •

(ذكر بناء بيت المقدس ووفاة داود عليه السلام)

« قيل : أصاب الناس فى زمان داود طاعون جارف ، فخرج بهم الى موضع بيت المقدس ، وكان يرى الملائكة تعرج منه الى السماء ، فلهذا قصده ليدعو فيه • فلما وقف موضع الصخرة ، دعا الله تعالى فى كشف الطاعون عنهم فاستجاب له ورفع الطاعون ، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدا ، وكان الشروع فى بنائه لاحدى عشرة سنة مضت من ملكه ، وتوفى قبل أن يستتم بناءه ، وأوصى الى سليمان باتمامه ، وقتل القائد الذى قتل أخاه ايشا بن داود • فلما توفى داود ودفنه سليمان ، تقدم بانفاذ أمره ، فقتل القائد ، واستتم بناء المسجد ، بناه بالرخام ، وزخرفه بالذهب ، ورصعه بالجواهر ، وقوى على ذلك جميعه بالجن والشياطين ، فلما فرغ اتخذ ذلك اليوم عيدا عظيما ، وقرب قربانا ، فتقبله الله منه • وكان ابتداؤه أولا ببناء المدينة ، فلما فرغ منها ابتدأ بعمارة المسجد • وقد أكثر الناس فى صفة البناء مما يستبعد ولا حاجة الى ذكره •

« وقيل : ان سليمان هو الذى ابتدأ بعمارة المسجد ، وكان

داود أراد أن يبنيه ، فأوحى الله اليه : ان هذا بيت مقدس ، وانك قد صبغت يدك فى الدماء فلست ببانيه ، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء . فلما ملك سليمان بناه . ثم ان داود توفى ، وكان له جارية تغلق الأبواب كل ليـــلة ، وتأتيه بالمفاتيح فيقوم الى عبادته ، فأغلقتها ليلة ، فرأت فى الدار رجلا ، فقالت : من أدخلك الدار ؟ فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير اذن . فسمع داود قوله فقال : أنت ملك الموت ؟ قال : نعم . قال : فهلا أرسلت الى لأستعد للموت ؟ قال : قد أرسلت اليك كثيرا . قال : من كان رســـولك ؟ قال : أين أبوك وأخوك وجارك ومعارفك ؟ قال : ماتوا . قال : فهم كانوا رسلى اليك لأنك تموت كما ماتوا . ثم قبضه . فلما مات ورث سليمان ملكه وعلمه ونبوته ، وكان له تســـعة عشر ولدا ، فورثه ســـليمان دونهم . وكان عمر داود ـ لما توفى ـ مائة سنة ، صح ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم : وكانت مدة ملكه أربعين سنة » .

ومن أخبار الأمم السابقة (الفرس) :

(ذكر الأحداث التى كانت من لدن ملك شيث الى أن ملك يرد)

« .. وأما نسابو الفرس ، فقد ذكرت ما قالوا فى مهلائيل ابن قينان ، وأنه هو « أوشهنج » الذى ملك الأقاليم السبعة ، وبينت قول من خالفهم . وقال هشام بن الكلبى : انه أول من بنى البناء ، واستخرج المعادن ، وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد ، وبنى مدينتين كانتـــا أول ما بنى على ظهر الأرض من المدائن ، وهما : مدينة « بابل » ـ وهى بالعراق ـ ومدينة « السوس » ـ بخوزستان ـ . وكان ملكه أربعين سنة . وقال غيره : هو أول من استنبط الحديد ، وعمل منه الأدوات للصناعات ، وقدر المياه فى مواضع المنافع ، وحض الناس على الزراعة واعتماد الأعمال ، وأمر بقتل السباع الضارية ، واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش ، وبذبح البقر والغنم والوحش وأكل لحومها ، وأنه بنى مدينـــة

« الرى » • قالوا : وهى أول مدينة بنيت بعد مدينة جيومرث التى كان يسكنها بدنباوند • وقالوا : انه أول من وضع الأحكام والحدود • وكان ملقبا بذلك يدعى بيشداد ، ومعناه بالفارسية أول من حكم بالعدل ، وذلك أن « بيش » معناه : أول ، و « داد » معناه : عدل وقضاء • وهو أول من استخدم الجوارى ، وأول من قطع الشجر وجعله فى البناء • وذكروا أنه نزل الهند وتنقل فى البلاد ، وعقد على رأسه تاجا ، وذكروا أنه قهر ابليس وجنوده ومنعهم الاختلاط بالناس وتوعدهم على ذلك ، وقتل مردتهم فهربوا من خوفه الى المفاوز والجبال ، فلما مات عادوا • وقيل : انه سمى شرار الناس شياطين واستخدمهم ، وملك الأقاليم كلها ، وأنه كان بين مولد « أوشهنج » وموت « جيومرث » مائتا سنة وثلاث وعشرون سنة » •

ومن أخبار الفرس والعرب :

(ذكر غزو بختنصر العرب)

« قيل : أوحى الله الى برخيا بن ضانيا يأمره أن يقول لبختنصر ليغز العرب ، فيقتل مقاتلتهم ويسبى ذراريهم ويستبيح أموالهم عقوبة لهم على كفرهم ، فقال برخيا لبختنصر ما أمر به ، فابتدأ بمن فى بلاده من تجار العرب فأخذهم وبنى لهم « حران » بالنجف وحبسهم فيه ، ووكل بهم ، وانتشر الخبر فى العرب ، فخرجت اليه طوائف منهم مستأمنين فقبلهم وعفا عنهم فأنزلهم السواد فابتنوا الأنبار ، وخلى عن أهل الحيرة فاتخذوها منزلا حياة بختنصر ، فلما مات انضموا الى أهل الأنبار ـ وهذا أول سكنى العرب السواد بالحيرة والأنبار ـ • وسار الى العرب بنجد والحجاز ، فأوحى الله الى برخيا وأرميا يأمرهما أن يسيرا الى معد بن عدنان فيأخذاه ويحملاه الى حران ، وأعلمهما أنه يخرج

من نسله محمد صلى الله عليه وسلم (؟) الذى يختم به الأنبياء ، فسارا تطوى لهما المنازل والأرض حتى سبقا بختنصر الى معد ، فحملاه الى حرا فى ساعتهما ـ ولمعد حينئذ اثنتا عشرة سنة ـ . وسار بختنصر ، فلقى جموع العرب فقـــاتلهم فهزمهم ، وأكثر القتل فيهم ، وسار الى الحجاز ، فجمع عدنان العرب ، والتقى هو وبختنصر بذات عرق ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم عدنان وتبعه بختنصر الى حصون هناك ، واجتمع عليه العرب وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه ، فكمن بختنصر كمينا ـ وهو أول كمين عمل ـ وأخذتهم السيوف ، فنادوا بالويل ، ونهى عدنان عن بختنصر وبختنصر عن عدنان ، فافترقا ، فلما رجع بختنصر ، خرج معد بن عدنان مع الأنبياء حتى أتى مكة ، فأقام أعلامها ، وحج وحج معه الأنبياء ، وخرج معد حتى أتى « ريشوب » وسأل عمن بقى من ولد الحرث بن مضاض الجرهمى ، فقيـــل له : بقى جوشم ابن جلهمة ، فتزوج معد ابنته معانة ، فولدت له نزار بن معد » .

ومن أخبار الروم :

(ومما كان من الأحداث شمسون)

« وكان من قرية من قرى الروم قد آمن ، وكانوا يعبـــدون الأصنام ، وكان على أميال من المدينة ، وكان يغزوهم وحده ، ويقاتلهم بلحى جمل ، فكان اذا عطش انفجر له من الحجر الذى فيه ماء عذب فيشرب منه . وكان قد أعطى قوة ، لا يوثقه حديد ولا غيره ، وكان على ذلك يجاهدهم ويصيب منهم وما يقدرون منه على شيء ، فجعلوا لامرأته جعلا لتوثقه لهم ، فأجابتهم الى ذلك ، فأعطوها حبلا وثيقا ، فتركته حتى نام وشدت يديه ، فاستيقظ وجذبه ،فسقط الحبل من يديه ، فأرسلت اليهم فأعلمتهم ، فأرسلوا

اليها بجامعة من حديد ، فتركتها فى يديه وعنقه وهو نائم ، فاستيقظ وجذبها ، فسقطت من عنقه ويديه ، فقال لها فى المرتين : ما حملك على ما صنعت ؟ فقالت : أريد أن أجرب قوتك وما رأيت مثلك فى الدنيا فهل فى الأرض شيء يغلبك ؟ قال : نعم ، شيء واحـــد ، فلم تزل تسأله حتى قال لها : ويحك ، لا يضبطنى الا شعرى · فلما نام أوثقت يديه بشعر رأسه ـ وكان كثيرا ـ فأرســلت اليهم ، فجاءوا فأخذوه ، فجدعوا أنفه وأذنيه وفقئوا عينيه ، وأقاموه للناس · وجاء الملك لينظر اليه ، وكانت المدينة على أساطين ، فدعا الله شمسون عليهم ، فأمر أن يأخذ عمودين من عمد المدينة فيجذبهما ويرد اليه بصره وما أصابوا من جسده ، وجذب العمودين فوقعت المدينة بالملك والناس ، وهلك من فيها هدما · وكان شمسون أيام ملوك الطوائف » ·

ومن أخبار بنى اسرائيل :

(ذكر أمر بنى اسرائيل فى التيه ووفاة هارون عليه السلام)

« ثم ان الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسير ببنى اسرائيل الى « أريحاء » بلد الجبارين ، وهى أرض بيت المقدس ، فساروا حتى كانوا قريبا منهم، فبعث موسى اثنى عشر نقيبا من سائر أسباط بنى اسرائيل، فساروا ليأتوا بخبر الجبارين ، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له « عوج بن عناق » فأخذ الاثنى عشر فحملهم وانطلق بهم الى امرأته ، فقـــال : انظرى الى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا ، وأراد أن يطأهم برجله ، فمنعتـــه امرأته ، وقالت : اطلقهم ليرجعوا ويخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل ذلك ، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض : انكم ان أخبرتم بنى اسرائيل بخبر هؤلاء لا يقدموا عليهم ، فاكتموا الأمر عنهم ، وتعاهـــدوا على ذلك ، ورجعوا ، فنكث عشرة منهم العهد وأخبروا بما رأوا ، وكتم رجلان

منهم ، وهما : يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ختن موسى ، ولم يخبروا الا موسى وهارون •

« فلما سمع بنو اسرائيل الخبر عن الجبارين ، امتنعوا عن المسير اليهم (فقال لهم موسى يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) قالوا : يا موسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون (قال رجلان) وهما يوشع وكالب (من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون • قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) فغضب موسى فدعا عليهم فقال (رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) وكانت عجلة من موسى ، فقال الله تعالى (فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) فندم موسى حينئذ فقالوا له : فكيف لنا بالطعام ؟ فأنزل الله المن والسلوى — فأما المن ، فقيل : هو كالصمغ وطعمه كالشهد يقع على الأشجار ؛ وقيل : هو الترنجبين ؛ وقيل : هو الخبز الرقاق ؛ وقيل : هو عسل كان ينزل لكل انسان صاع • وأما السلوى ، فهو طائر يشبه السمانى — • فقالوا : أين الشراب ؟ فأمر موسى (فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) لكل سبط عين • فقالوا : أين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام ؛ فقالوا : أين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم ولا يتمزق لهم ثوب ، ثم (قالوا يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) فلما خرجوا من التيه رفع عنهم المن والسلوى » •

ومن أخبار السيرة :

(ذكر الوقت الذى أرسل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم)

« بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لعشرين سنة مضت من ملك كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، وكان على الحيرة اياس بن قبيصة الطائى عاملا للفرس على العرب . قال ابن عباس من رواية حمزة وعكرمة عنه ، وأنس بن مالك ، وعروة بن الزبير : ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث وأنزل عليه الوحى وهو ابن أربعين سنة . وقال ابن عباس من رواية عكرمة أيضا عنه وسعيد بن المسيب : انه أنزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وكان نزول الوحى يوم الاثنين بلا خوف ، واختلفوا فى أى الأثانين كان ذلك . فقال أبو قلابة الجرمى : أنزل الفرقان على النبى صلى الله عليه وسلم لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وقال آخرون : كان ذلك لتسع عشرة مضت من رمضان ، وكان — صلى الله عليه وسلم — قبل أن يظهر له جبريل يرى ويعاين آثارا من آثار من يريد الله اكرامه بفضله ، وكان من ذلك ما ذكرت من شق الملكين بطنه واستخراجهما ما فى قلبه من الغل والدنس ؛ ومن ذلك أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر الا سلم عليه ، فكان يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى أحدا . وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك . قال عامر ابن ربيعة : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : انا لننتظر نبيا من ولد اسماعيل ، ثم من بنى عبد المطلب ولا أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى ، فان طالت بك حياة ورأيته فاقرأه منى السلام ، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك ، قلت : هلم . قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، ولا تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه

ويكرهون ما جاء به ويهاجر الى يثرب ، فيظهر بهـا أمره ، فاياك أن تنخدع عنه ، فانى طفت البلاد كلها أطلب دين ابراهيم ، فكل من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول : هذا الدين وراءك وينعتونه مثل نعته لك ، ويقولون : لم يبق نبىّ غيره . قال عامر : فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول زيد وأقرأته السلام ، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترحم عليـه ، وقال : قد رأيته فى الجنـة يسـحب ذيولا . وقال جبير بن مطعم : كنا جلوسا عند صنم بوانة قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر ونحرنا جزورا ، فاذا صائح يصيح من جوف الصنم : اسمعوا الى العجب ، ذهب استراق الوحى ونرمى بالشهب ، لنبى بمكة اسمه أحمـد ، مهاجره الى يثرب . قال : فأمسكنا وعجبنا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسـلم » . والأخبار عن دلائل نبوته كثيرة . وقد صنف العلماء فى ذلك كتبا كثيرة ذكروا فيها كل عجيبة ليس هنا موضع ذكرها » .

(ودخلت السنة الثالثة من الهجرة)

« فى المحرم سنة ثلاث ، سمع رسول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ أن جمعا من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وبنى محارب ابن حفص ، تجمعوا ليصيبوا من المسلمين فسار اليهم فى أربعمائة وخمسين رجلا ، فلما صار بذى القصة ، لقى رجلا من ثعلبة فدعاه الى الاسلام فأسلم ، وأخبره أن المشركين أتاهم خبره فهربوا الى رؤوس الجبال ، فعاد ولم يلق كيدا ، وكان مقـامه اثنتى عشرة ليلة .

وفيها ، فى جمادى الأولى ، غزا بنى سليم ببحران ؛ وسبب هذه الغزوة ، أن جمعا من بنى سليم تجمعوا ببحران من ناحيـة الفرع ، فبلغ ذلك النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسار اليها فى

ثلاثمائة ، فلما بلغ بحران وجدهم قد تفرقوا فانصرف ولم يلق كيـــدا . وكانت غيبته عشر ليـــال ، واستخلف على المدينـــة ابن أم مكتوم » .

ومن أخبار فتوح العراق (بقيادة خالد بن الوليد) :

(ذكر وقعة الفراض) سنة ١٢ هـ

« ثم سار خالد من « الرضاب » الى الفراض ـ وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة ـ وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات ، وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس فأعانوهم ، واجتمع معهم (من العرب) : بنو تغلب ، وأياد ، والنمر وساروا الى خالد ، فلما بلغوا الفرات قالوا له :اما أنتعبروا الينا واما أن نعبر اليكم ، فقال خالد : اعبروا . قالوا له : تنح عن طريقنا حتى نعبر . قال : لا أفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا ـ وذلك للنصف من ذى القعدة سنة اثنتى عشرة ـ . فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض : احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل على دين ، وله عقل وعلم ، ووالله لينصرن ولنخذلن ، ثم لم ينتفعوا بذلك ـ فعبروا أسفل من خالد ، وعظم فى أعينهم ، وقالت الروم : امتازوا حتى نعرف اليوم من يثبت ممن يولى ، ففعلوا ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، وانهزمت الروم ومن معهم ، وأمر خالد المسلمين أن لا يرفعوا عنهم (السيف) فقتل فى المعركة وفى الطلب مائة ألف ، وأقام خـــالد على الفراض عشرا ، ثم أذن بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم ، وجعل شجرة بن الأعز على الساقة وأظهر خالد أنه فى الساقة » .

ومن أخبار فتوح الشام :

(ثم دخلت سنة خمس عشرة)

(ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية) : « ثم أرسل أبو عبيدة ، خالد بن الوليد الى قنسرين ، فلما نزل الحاضر ، زحف اليهم الروم وعليهم « ميناس » — وكان من أعظم الروم بعد هرقل — فاقتتلوا ، فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها ، فماتوا على دم واحد . وأما أهل الحاضر ، فأرسلوا الى خالد انهم عرب ، وأنهم حشروا ، ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم . وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه ، فقال : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا ، فنظروا فى أمرهم ، ورأوا ما لقى أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص ، فأبى خالد الا على خراب المدينة فأخربها ، فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية ، وسببه أن خالدا وعياضا أدربا الى هرقل من الشام ، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة ، فخرج من ناحية قرقيسيا ، وأدرب عبد الله بن المعتم من ناحية الموصل ، ثم رجعوا ، فعندما دخل هرقل القسطنطينية ، وكانت هذه أول مدربة فى الاسلام سنة خمس عشرة — وقيل ست عشرة — فلما بلغ عمر صنيع خالد ، قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى — وقد كان (عمر) عزله والمثنى بن حارثة ، وقال : انى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما ، فأما المثنى ، فانه رجع عن رأيه فيه لما قام بعد أبى عبيدة ، ورجع عن خالد بعد قنسرين — . وأما هرقل ، فانه أخرج من الرها ، وكان أول من أنبح كلابها ، ونفر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة — وكان من الصحابة — . وسار هرقل فنزل بشمشاط ، ثم أدرب منها نحو القسطنطينية ، فلما أراد المسير منها ، علا على نشز ثم التفت الى الشام فقال : « السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومى

أبدا الا طائفا حتى يولد المولود المشئوم ويا ليته لا يولد فما أحلى فعله وأمر فتنته على الروم » ، ثم سار فدخل القسطنطينية ، وأخذ أهل الحصون التى بين اسكندرية (لعـــله يقصد اسكندرونة) وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين انطاكية وبلاد الروم ، وشعث الحصون ، فكان المسلمون لا يجدون بها أحدا ، وربما كمن عندها الروم ، فأصابوا غرة المتخلفين فاحتاط المسلمون لذلك » ٠

ومن أخبار فتوح الهند :

(ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمائة)

(ذكر مسير الهند الى بلاد الاسلام وما كان منهم مع سبكتكين) :
« لما فرغ سبكتكين من « بست » و « قصدار » غزا الهند ، فافتتح قلاعا حصينة على شواهق الجبـــال وعاد سالما ظافرا ٠ ولمـا رأى « جيبال » ملك الهند ما دهاه وأن بلاده تملك من أطرافها ، أخذه ما قدم وحدث ، فحشد وجمع ، واســـتكثر من الفيول وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين ــ وقد باض الشيطان فى رأسه وفرخ ــ ، فسار سبكتكين عن غزنة اليه ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة ، فالتقوا واقتتلوا أياما كثيرة ، وصـــبر الفريقان ، وبالقرب منهم « عقبة غورك » وفيها عين ماء لا تقبل نجسا ولا قذرا ، واذا ألقى فيها شىء من ذلك ، اكفهرت السماء ، وهبت الرياح ، وكثر الرعد والبرق ٠ والأمطار ولا تزال كذلك الى أن تطهر من الذى ألقى فيها ، فأمر سبكتكين بالقاء نجاسة فى تلك العين ، فجـــاء الغيم والرعد والبرق ، وقامت القيامة على الهنود لأنهم رأوا ما لم يروا مثـــله وتوالت عليهم الصواعق والأمطار واشتد البرد حتى هلكوا ، وعميت عليهم المذاهب ، واستسلموا لشدة ما عاينوه ؛ وأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب الصلح وترددت الرسل ، فأجابهم اليه بعـــد

امتناع ولده محمود على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه ، فاستقر ذلك ، ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد . وسير معه سبكتكين من يتسلمها ، فان المال والفيلة كانت معجلة ، فلما أبعد « جيبال » ملك الهند ، قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه ، فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر ، وسار نحو الهند ، فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم ، وقصد « لمغان » - وهى من أحسن قلاعهم - فافتتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعار الاسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها ، فلما بلغ ما أراده عاد الى غزنة . فلما بلغ « جيبال » سقط فى يده ، وجمع العساكر وسار فى مائة ألف مقاتل ، فلقيه سبكتكين وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ففعلوا ذلك ، فضجر الهنود من دوام القتال معهم ، وحملوا حملة واحدة ، فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب ، وحمل أيضا المسلمون جميعهم ، واختلط بعضهم ببعض ، فانهزم الهنود وأخذهم السيف من كل جانب ، وأسر منهم ما لا يعد ، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة ، وذل الهنود بعد هذه الوقعة ، ولم يكن لهم بعدها راية ، ورضوا بأن لا يطلبوا فى أقاصى بلادهم ، ولما قوى سبكتكين بعد هذه الوقعة ، أطاعه الأفغانية والخليج وصاروا فى طاعته » .

(ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة)

(ذكر غزوة بهاطية) : « فى هذه السنة ، غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند - وهى وراء المولتان - وصاحبها يعرف ببحيرا ، وهى مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق ، فامتنع صاحبها بها ، ثم انه خرج الى ظاهرها ، فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم فى الرابع ، وطلب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقهم المسلمون الى باب البلد فملكوه عليهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم ، فقتل المقاتلة ، وسبيت الذرية ، وأخذت الأموال . وأما بحيرا ،

فانه لما عاين الهلاك ، أخذ جماعة من ثقاته وسار الى رءوس تلك الجبال ، فسير اليه يمين الدولة سرية ، فلم يشعر بهم بحيرا الا وقد أحاطوا به ، وحكموا السيوف فى أصحابه ، فلما أيقن بالعطب أخذ خنجرا كان معه فقتل به نفسه . وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها وعاد عنها الى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعليمه ، ولقى فى عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها وزيادة الأنهار ، فغرق منه ومن عسكره شىء عظيم » .

ومن أخبار الصراع بين العباسيين والأمويين :

(ثم دخلت سنة دائة)

(ذكر ابتداء الدعوة العباسية) : « فى هذه السنة ، وجه محمد ابن على بن عبد الله بن عباس ، الدعاة فى الآفاق . وكان سبب ذلك أن محمدا كان ينزل أرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام ، فسار أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الى الشام ، الى (الخليفة الأموى) سليمان بن عبد الملك ، فاجتمع به محمد بن على فأحسن صحبته ، واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ، ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه ، فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن ، فلما أحس أبو هاشم بالشر ، قصد الحميمة من أرض الشام وبها محمد فنزل عليه ، وأعلمه أن هذا الأمر (أى الخلافة) صائر الى ولده وعرفه ما يعمل . وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم اليه أن الأمر صائر الى ولد محمد بن على وأمرهم بقصده بعده ، فلما مات أبو هاشم قصدوا محمدا وبايعوه وعادوا فدعوا الناس اليه فأجابوهم ، وكان الذين سيرهم الى الآفاق جماعة ، فوجه ميسرة الى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج ــ وهو أبو محمد الصادق ــ

وحيان العطار ـ خال ابراهيم بن سلمة ـ الى خراسان ، وعليهـــا الجراح الحكمى ، وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته فلقوا من لقوا ، ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمـــد بن على فدفعوها الى ميسرة ، فبعث بها ميسرة الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر رجلا نقباء ، منهم : ســـليمان بن كثير الخزاعى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وقحطبة ابن شبيب الطائى ، وموسى بن كعب التميمى ، وخالد بن ابراهيم أبو داود من بنى شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمى ، وعمران بن اســـماعيل أبو النجم ـ مولى آل أبى معيط ـ ، ومالك ابن الهيثم الخزاعى ، وطلحـــة بن زريق الخزاعى ، وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى خزاعة ، وشبل بن طهمان أبو على الهروى ـ مولى لبنى حنيفة ـ ، وعيسى بن أعين ـ مولى خزاعة ـ ، واختار سبعين رجلا ، وكتب اليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها » .

ومن أخبار ثورة الزنج :

(ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين)

(ذكر أخبار صاحب الزنج) : « فى هذه السنة ، سير جعلان لحرب صاحب الزنج بالبصرة ، فلما وصل الى البصرة نزل بمكان بينه وبين صاحب الزنج فرسخ ، وخندق عليه وعلى أصحابه ، وأقام ستة أشهر فى خندقه ، وجعل يوجه الزينبى وبنى هاشم ومن خف لحربهم هذا اليوم الذى تواعدهم جعلان للقائه ، فلم يكن بينهم الا الرمى بالحجارة والنشاب ، ولا يجد جعلان الى لقائه ســـبيلا لضيق المكان عن مجال الخيل ، وكان أكثر أصحاب جعلان خيالة ، فلما طال مقامه فى خندقه أرسل صاحب الزنج أصحابه الى مسالك الخندق فبيتوا جعلان وقتلوا من أصحابه جماعة ، وخاف الباقون خوفا شديدا ، وكان الزينبى قد جمع : البلالية ، والسعدية ووجه بهم من

مكانين ، وقاتلوا الخبيث فظفر بهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فترك جعلان خندقه وانصرف الى البصرة ، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج ، وأمر سعيدا الحاجب بمحاربتهم ، وتحول صاحب الزنج بعد ذلك من السبخة التى كان فيها ، ونزل بنهر أبى الخصيب ، وأخذ أربعة وعشرين مركبا من مراكب البحر ، وأخذوا منها أموالا كثيرة لا تحصى ، وقتل من فيها ونهبها أصحابه ثلاثة أيام وأخذ لنفسه بعد ذلك من النهب » .

(ذكر دخول الزنج الأبلة)

« وفيها ، دخل الزنج « الأبلة » ، فقتلوا فيها خلقا كثيرا وأحرقوها ، وكان سبب ذلك أن جعلان لما تنحى عن خندقه الى البصرة ، ألح صاحب الزنج بالغارات على « الأبلة » ، وجعلت سراياه تضرب الى ناحية نهر معقل ، ولم يزل يحارب الى يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب فافتتحها ، وقتل أبو الأحوص وعبيد الله بن حميد ابن الطوسى ، وأضرمها نارا ، وكانت مبنية بالساج ، فأسرعت النار فيها ، وقتل من أهلها خلق كثير ، وحووا الأموال العظيمة ، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذى نهب » .

ومن أخبار الحروب الصليبية :

(ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة)

(ذكر ملك الفرنج لعنهم الله البيت المقدس) « كان البيت المقدس لتاج الدولة تتش ، وأقطعه للأمير سقمان بن ارتق التركمانى ، فلما ظفر الفرنج بالأتراك على أنطاكية وقتلوا فيهم ضعفوا وتفرقوا ، فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا اليه ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالى وحصروه وبه الأمير سقمان وايلغازى ابنا أرتق وابن عمهما سونج وابن أخيهما يا قوتى ، ونصب عليه نيفا وأربعين منجنيقا ،

فهدموا مواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد ، فدام القتال والحصار نيفا وأربعين يوما وملكوه بالأمان فى شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأحسن الأفضل الى سقمان وايلغازى ومن معهما ، وأجزل لهم العطاء وسيرهم ، فساروا الى دمشق ، ثم عبروا الفرات، فأقام سقمان ببلد الرها ، وسار ايلغازى الى العراق ، واستناب المصريون فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة ، وبقى فيه الى الآن ، فقصده الفرنج بعد أن حصروا عكا فلم يقدروا عليها ، فلما وصلوا اليه حصروه نيفا وأربعين يوما ، ونصبوا عليه برجين ، أحدهما من ناحية صهيون وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به ، فلما فرغوا من احراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من الجانب الآخر وملكوها من جهة الشمال منه ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان ، وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين ، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه اليهم ، ووفى لهم الفرنج ، وخرجوا ليلا الى عسقلان فأقاموا بها . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف ؛ وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا ، وغنموا منه مالا يقع عليه الاحصاء . وورد المستنفرون من الشام فى رمضان الى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهروى ، فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين بالقدس الشريف المعظم من قتل الرجال ، وسبى الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، فلشدة ما أصابهم أفطروا ، فأمر الخليفة أن يسير

القاضى أبو محمد الدامغانى ، وأبو بكر الشاشى ، وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو الوفا بن عقيل ، وأبو سعد الحلوانى ، وأبو الحسين ابن سماك ، فساروا الى حلوان ، فبلغهم قتل مجد الملك البلاسانى ـ على ما نذكره ـ فعادوا من غير بلوغ أرب ، ولا قضاء حاجة ، واختلف السلاطين ـ على ما نذكره ـ فتمكن الفرنج من البلاد » .

(ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية) « وفى هذه السنة ، سادس جمادى الآخرة فتح أتابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا . وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ، ووصلت غاراتهم الى أدانيها وأقاصيها ، وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة ؛ وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل : الرها ، وسروج ، وألبيرة ، وسن ابن عطية ، وحملين ، والموزر ، والفرادى وغير ذلك . وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين ـ وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر ـ . وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذر عليه ملكها لما هى عليه من الحصانة ، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ الى قصد بلادهم ، فلما رأوه أنه غير قادر على ترك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث أنه محارب لهم ، اطمأنوا ، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات الى بلاده الغربية ، فجاءت عيون أتابك اليه فأخبروه الخبر ، فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه ، وجمع الأمراء عنده ، قال : قدموا الطعام ؛ وقال : لا يأكل على مائدتى هذه الا من يطعن غدا معى بباب الرها ، فلم يتقدم اليه غير أمير واحد وصبى لا يعرف لما يعلمون من اقدامه وشجاعته ، وأن أحدا لا يقدر على مساواته فى الحرب . فقال الأمير

لذلك الصبى : ما أنت فى هذا المقام ؟ فقال أتابك : دعه ، فوالله انى أرى وجها لا يتخلف عنى . وسار والعساكر معـــــه ، ووصل الى اثرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبى ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضا فاعترضه ذلك أمير فطعنه فقتله وسلم الشهيد (عماد الدين أتابك) ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما ، فزحف اليه عدة دفعات ، وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولج فى قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه ، فسقطت البدنة التى نقبها النقابون ، وأخذ البلد عنوة وقهرا ، وحصر قلعته فملكها أيضا ، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذرية ، وقتلوا الرجال ، فلما رأى أتابك البلد ، أعجبه ورأى أن تخريب مثله لا يجوز فى السياسة ، فأمر فنودى فى العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال الى بيوتهم ، واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شىء الا الشاذ النادر الذى أخذ ، وفارق من أخذه العسكر فعاد البلد الى حاله الأول ، وجعل فيه عسكرا يحفظه ، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ، ما عدا ألبيرة ، فانها حصينة منيعة وعلى شاطىء الفرات فسار اليها وحصرها ، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها فبقى على حصارها الى أن رحل عنها ـ على ما نذكره ان شاء الله تعالى ـ » .

(ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)

(ذكر اختلاف الفرنج بالشــــام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين) : « كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن الصنجيل كان قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل اليها وأقام عندها بطبرية ، ومات ملك الفرنج بالشام ، وكان مجذوما ، وأوصى بالملك الى ابن أخت له وكان صـــغيرا ، فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج فى ذلك الوقت أكبر منه شأنا ولا أشجع ولا أجود رأيا منه ، فطمع فى الملك بسبب

هذا الصغير ؛ فاتفق أن الصغير توفى ؛ فانتقل الملك الى أمه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به . ثم ان هذه الملكه هويت رجلا من الفرنج من الذين قدموا الشام اسمه « كى » فتزوجته ونقلت الملك اليه ، وجعل التاج على رأسه ، وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاستبارية والداويه والبارونية وأعلمتهم أنها قد ردت الملك اليه ، وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه ودانوا له ، فعظم ذلك على القمص وسقط فى يديه ، وطولب بحساب ما جبى من الأموال مدة ولاية الصبى ، فادعى أنه أنفقه عليه ، وزاده ذلك نفورا ، وجاهر بالمشاققة والمباينة ، وراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد ، وضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة ؛ وكان عنده جماعة من فرسان القمص فأطلقهم ، فحل ذلك عنده أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج ، فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم ، وكان ذلك أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره ان شاء الله . وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية ، فشنت الغارات على بلاد الفرنج ، وخرجت سالمة غانمة، فوهن الفرنج بذلك وضعفوا ، وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم » .

(ذكر غدر البرنس أرناط) : « كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين ، وأعظمهم ضررا عليهم ، فلما رأى صلاح الدين ذلك منه ، قصده بالحصر مرة بعد مرة ، وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى ، فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فأجابه الى ذلك ، وهادنه وتحالفا ، وترددت القوافل من الشام الى مصر ، ومن مصر الى

الشام . فلما كان هذه السنة ، اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الجند ، ففدر اللعين بهم ، وأخـــذهم عن آخـــرهم ، وغنم أموالهم ودوابهم وســـلاحهم ، وأودع الســـجون من أسر منهم ، فأرسل اليـــه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده ان لم يطلق الأسرى والأموال فلم يجب الى ذلك وأصر على الامتناع ، فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ان ظفر به ، فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى » .

ومن أخبار الغزو التترى :

(ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة)

(ذكر مســـير التتر الى خوارزم شـــاه وانهزامه وموته) :
« لما ملك الكفار « سمرقند » عمد جنكزخان ــ لعنه الله ــ وسير عشرين ألف فارس ، وقال لهم : « أطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه » . وهذه الطائفة نسميها التتر المغربة ، لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم ، لأنهم هم الذين أوغلوا فى البلاد ، فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ، ساروا وقصدوا موضعا يسمى « بنج آب » ــ ومعناه : خمس مياه ــ فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة ، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار ، وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض التى من الخشب مشدودة اليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحـــوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة ، فلم يشعر خوارزم شاه الا وقد صاروا معـــه على أرض واحـــدة ، وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا وخوفا ، وقد اختلفوا فيما بينهم ، وكانوا يتماسكون بسبب أن نهر جيحون بينهم ، فلما عبروه اليهم

لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدى سبأ ، وطلب كل طائفة منهم جهة ، ورحل خوارزم شاه لا يلوى على شيء فى نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها ، وكانوا لم يتعرضوا فى مسـيرهم لشيء ، لا بنهب ولا قتل ، بل يجدون فى طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم ، فلما سمع بقربهم منه رحل الى « مازندران » — وهى له أيضا — فرحل التتر المغربون فى اثره ، ولم يعرجوا على « نيسابور » بل تبعوه ، فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها ، فوصل الى مرسى من بحر طبرستان ، تعرف « باب سكون » ، وله هناك قلعة فى البحر ، فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصـلت التتر ، فلما رأوا خوارزم شاه — وقد دخل البحـر — وقفوا على ساحل البحـر ، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا ، فهم الذين قصـدوا الرى وما بعدها — على ما نذكره ان شاء الله . هكذا ذكر لى بعض الفقهاء ممن كان ببخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منهم ووصل الينا (بالموصل) . وذكر غيره من التجار ، أن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل الى الرى ثم منها الى همذان والتتر فى أثره ، ففارق همذان فى نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الى مازندران وركب فى البحر الى هذه القلعة ، وكان هذا هو الصحيح ، فان الفقيـه كان حينئذ مأسورا ، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ووصل الى خوارزم شاه ، ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ، ففارق همذان ، وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ، ووصل التتر اليها بعدهم ببعض نهار ، فهم يخبرون عن مشاهدة ، ولما وصل خوارزم شاه الى هذه القلعة المذكورة توفى فيها » .

(ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند) :

« قد ذكرنا ما فعله التتـر المغربة التى سيرها ملكهم جنكزخان

ـ لعنه الله ـ الى خوارزم شاه ، وأما جنــكيزخان ، فانه بعد أن سير هذه الطائفة الى خوارزم شاه ، وبعد انهزام خوارزم شاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام : فسير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها ؛ وسير قسما آخر منها الى ترمذ ؛ وسير قسما منها الى كلابة ـ وهى قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون ـ فسارت كل طائفة الى الجهة التى أمرت بقصــدها ونازلتها واستولت عليها ، وفعلت من القتــل والأسر والسبى والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل ما فعل أصحابهم، فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند ، فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسيره الى خوارزم ، وســير جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان » .

(ثم دخلت سنة احدى وعشرين وستمائة)

(ذكر عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما) :

« أول هذه السنة ، وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان ـ وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصــول هؤلاء الرى ـ وكان من سلم من أهلها قد عادوا اليها وعمروها ، فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم ، فلم يمتنعوا عنهم ، فوضعوا فى أهلهــا السيف وقتلوهم كيف شاءوا ونهبوا البلد وخربوه ، وســاروا الى « ساوة » ففعلوا بها كذلك ، ثم الى « قم » و « قاشان » ـ وكانتا قد ســلمتا من التتر أولا ، فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهمــا أذى ـ فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ، ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ، ثم قصدوا همذان ، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد . وكانوا لما وصلوا الى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الى

أذربيجان ، فنزلوا بأطرافها ، فلم يشعروا الا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم ، فولوا منهزمين ، فوصل طائفة منهم الى تبريز ، وأرسلوا الى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون : ان كنت موافقنا ، فسلم الينا من عندك من الخوارزمية ، والا فعرفنا أنك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا ، فعمد الى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم ، وحمل الأسرى والرءوس الى التتر ، وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا ، فعادوا عن بلاده نحو خراسان ، فعلوا هذا وليسوا فى كثرة ، كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس ، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس ، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع ، ومع هذا فلم يحدث نفسه ، ولا الخوارزمية — بالامتناع منهم . نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم ، فقد دفعوا الى أمر عظيم من قتل النفوس ، ونهب الأموال ، واسترقاق الأولاد ، وسبى الحريم وقتلهن وتخريب البلاد » .

ثبت المراجع

ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى :

ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة (المطبعة الوهبية ١٢٨٠ هـ).

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٣) .

ـ انكامل فى التاريخ (طبعة الادارة المنيرية ومصطفى محمد ـ القاهرة) .

ـ اللباب فى تهذيب الأنساب (نشر مكتبة القدسى ـ القاهرة ١٣٥٧ هـ) .

ابن الأكفانى : محمد ابراهيم بن ساعد :

ـ ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد . (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢٦٧ فن المكتبات) .

ابن اياس الأزدى : يزيد بن محمد :

ـ تاريخ الموصل (مصور : دار الكتب المصرية رقم : ٢٤٧٥ تاريخ) .

ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد :

ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (طبعة الهند ١٣٥٧ هـ) .

ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد :

ـ تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة ، المسمى بالعجم المفهرس (مخطوط : دار الكتب المصرية ، رقم : ٨ مصطلح الحديث) .

ـ الاصابة فى تمييز الصـــحابة (المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ١٣٥٨ هـ) .

ابن حزم : على بن أحمد الظاهرى :

ـ جمهرة أنساب العرب (تحقيق : ليفى بروفنسال : دار المعارف بمصر : ١٩٤٨ م) .

ابن حيان : حيان بن خلف :

ـ المقتبس فى تاريخ الأندلس (مصور : دار الكتب المصرية رقم : ٤٨٥١ تاريخ) .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد :

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر .

ابن خلكان : أحمد بن ابراهيم :

ـ وفيات الأعيـان وأنباء الزمان (طبعـــة بولاق ١٢٩٦ ، و (طبعة الدكتور محمد فريد رفاعى) .

ابن الشحنة : محمد بن محمد الحنفى :

ـ روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر .

ابن شداد : يوسف بن رافع بن تميم :

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (المعروف بسيرة صلاح الدين الأيوبى) .

(مطبعة الآداب والمؤيد بمصر : ١٣١٧ هـ) .

ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا :

ـ الفخـــرى فى الآداب السلطانية (المطبعـــة الرحمانية بمصر ١٣٤٠ هـ) .

ابن ظافر : جمال الدين على :

ـ أخبـــار الدول المنقطعة (مصـــور : دار الكتب المصرية رقم : ٨٩٠ تاريخ) .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى :

ـ الاستيعاب فى معرفة الأصـــحاب (مطبوع مع كتاب : الاصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانى ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٥٨ هـ) .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله :

ـ فتوح مصر والمغرب (تحقيق : عبد المنعم عامر ـ القسم التاريخى ـ لجنة البيان العربى) .

ابن العديم : عمر بن أحمد بن هبة الله :

ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب (تحقيق : سامى الدهان) .

ابن عساكر : على بن الحسن بن هبة الله :

ـ تاريخ دمشق (مطبوع بعنوان : التاريخ الكبير ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ـ طبعة الشام) .

ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى :

ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (نشر مكتبة القدسى ـ القاهرة) .

ابن قاضى شهبة : أبو بكر بن أحمد بن محمد :

ـ الكواكب الدرية فى السيرة النورية (مصور : دار الكتب المصرية رقم : ١٢٢٧ تاريخ) .

ابن القلانسى : حمزة بن أسد بن على :

ـ ذيل تاريخ دمشق (بيروت ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨ م) .

ابن كثير : اسماعيل بن عمر القرشى :

ـ البداية والنهاية فى التاريخ (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

ابن ماكولا : على بن هبة الله العجلى :

ـ الاكمال فى رفع الارتياب عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب . (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٨ مصطلح الحديث) .

ابن النديم : محمد بن اسحاق :

ـ الفهرست (المطبعة الرحمانية بالقاهرة) .

ابن واصل : محمد بن سالم الحموى :

ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (تحقيق : الدكتور جمال الدين الشيال) .

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم :

ـ الذيل على الروضتين (مطبوع بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ـ تحقيق السيد عزت العطار ١٩٤٦) .

ـ الروضتين فى أخبار الدولتين (تحقيق : الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٧ هـ) .

أبو شجاع الروزراورى : محمد بن حسين بن عبد الله :

ـ ذيل تجارب الأمم (تحقيق هـ . ف . آمدروز ـ طبع شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٦ م)

أبو الفدا : اسماعيل بن على بن محمود :

ـ المختصر فى أخبار البشر .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر :

ـ أنساب الأشراف (تحقيق : الدكتور محمد حميد الله ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩) .

البلوى : عبد الله بن محمد المدينى :

ـ سيرة أحمد بن طولون (تحقيق : محمد كرد على ـ المكتبة العربية بدمشق) .

البندادى : الفتح بن على بن محمد :

ـ تاريخ دولة آل سلجوق (مطبعة الموسوعات بمصر : ١٩٠٠ م) .

حاجى خليفة : مصطفى بن على :

ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (دار الطباعة المصرية ١٢٧٤ هـ) .

حبشى : حسن (الدكتور) :

ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (دار الفكر العربى ١٩٥٨) .

حمزة الأصفهانى : ابن حسن :

ـ تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام (بيروت) .

الديوه جى : سعيد :

ـ الموصل فى العهد الأتابكى (بغداد ١٩٥٨ م) .

الذهبى : محمد بن أحمد :

ـ تجريد أسماء الصحابة (طبعة الهند : ١٣١٥ هـ) .

ـ تذكرة الحفاظ (طبعة الهند ١٣٧٦ هـ) .

ـ سير أعلام النبلاء (مصور : دار الكتب المصرية رقم : ١٢١٩٥ تاريخ) .

رنسمان : ستيفن :

ـ الحضارة البيزنطية (ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١) .

روزنثال : فرانز :

ـ علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ـ مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦٣) .

الزبيدى : محمد بن حسين بن عبد الله الأندلسى :

ـ مختصر كتاب العين (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٦٤٤٥ هـ)

زيدان : جرجى :

ـ تاريخ آداب اللغة العربية (دار الهلال ١٩٣١) .

سبط ابن الجوزى : يوسف بن قزاوغلى التركى :

ـ مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (طبعة الهند ١٩٥١ م) .

السبكى : عبد الوهاب بن تقى الدين :

ـ طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية المصرية) .

السخاوى : محمد بن عبد الرحمن :

ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (مطبعة الترقى سنة ١٣٤٩ هـ) .

سرهنك : اسماعيل (باشا) :

ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (استانبول ١٩٥١) .

سعداوى : نظير حسان (الدكتور) :

ـ المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبى (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢) .

السمعانى : عبد الكريم بن محمد بن منصور :

ـ الأنساب (طبع حجر : دار الكتب المصرية رقم : تاريخ)

السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد :

ـ لب اللباب فى تحرير الأنساب (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢١٣٤ تاريخ) .

الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم بن أحمد :

ـ الملل والنحل (تحقيق : محمد سيد كيلانى ـ مطبعة الحلبى ١٣٨١ هـ)

الصابى : هلال بن المحسن :

ـ تاريخ هلال الصابى (مطبوع مع كتاب (ذيل تجارب الأمم ، لأبى شجاع الروزراورى) .

صايغ : سليمان (القس) :

ـ تاريخ الموصل (المطبعة السلفية بمصر : ١٣٤٢ م) .

الطبرى : محمد بن جرير :

ـ تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية المصرية) .

العرينى : السيد الباز (الدكتور) :

ـ مؤرخو الحروب الصليبية . (دار النهضة العربية : ١٩٦٢) .

العزاوى : عباس (المحامى) :

ـ التعريف بالمؤرخين (بغداد ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م) .

عماد الدين الأصفهانى : محمد بن حامد :

ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى (المطبعة الخيرية بالقاهرة : ١٣٢٢ هـ) .

عمارة اليمنى : ابن على بن زيدان :

ـ النكت العصرية فى الوزارة المصرية

الفيومى : أحمد بن محمد بن على المقرى :

ـ نثر الجمان فى تراجم الأعيان (مخطوط : دار الكتب المصرية ، رقم : ١٧٤٦ تاريخ)

القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود :

ـ آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م) .

القفطى : على بن يوسف :

ـ أنباه الرواة على انباه النحاة (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢٨٠١ تاريخ)

كلارى : روبرت :

ـ فتح القسطنطينية على يد الصليبيين (ترجمة الدكتور حسن حبشى ـ دار الفكر العربى بمصر : ١٩٦٤) .

مسكويه : أحمد بن محمد :

ـ تجارب الأمم وتعاقب الهمم (مخطوط : دار الكتب المصرية، رقم ٤٦٤٤ تاريخ ، ومطبوع : تحقيق : هـ . ف . أمدروز ـ طبع شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤) .

المنذرى : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله :

ـ التكملة لوفيات النقلة (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٦٠٦٠ ح) ..

المنينى : أحمد بن على بن عمر :

ـ شرح المنينى على تاريخ اليمينى ، المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى (المطبعةالوهبية سنة ١٢٨٦ هـ).

النسوى : محمد بن أحمد بن على :

ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (تحقيق : حافظ أحمد حمدى ـ دار الفكر العربى ١٩٥٣) .

نصحى: ابراهيم (الدكتور) :

ـ مصر فى عصر البطالمة ، مكتبة الانجلو المصرية : ١٩٦٦) .

النووى : يحيى بن شرف بن مرى :

ـ تهذيب الأسماء واللغات (دار الطباعة المنيرية بمصر) .

ـ طبقات الشافعية (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢٠٢١ تاريخ) .

هنداوى : محمد موسى (الدكتور) :

ـ المعجم فى اللغة الفارسية (مكتبة مطبعة مصر) ..

ياقوت : ابن عبد الله الحموى :

ـ معجم الأدباء (نشر الدكتور محمد فريد رفاعى) .

اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر :

ـ تاريخ اليعقوبى (مطبعة العزى ـ النجف ١٣٥٨ هـ) .

اليونينى : موسى بن محمد بن أحمد :

ـ ذيل مرآة الزمان (طبعة الهند : ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م).

فهرس

النسوى : محمد بن أحمد بن على :

ــ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (تحقيق : حافظ أحمد حمدى ــ دار الفكر العربى ١٩٥٣) .

نصحى: ابراهيم (الدكتور) :

ــ مصر فى عصر البطالمة (مكتبة الانجلو المصرية : ١٩٦٦) .

النووى : يحيى بن شرف بن مرى :

ــ تهذيب الأسماء واللغات (دار الطباعة المنيرية بمصر) .

ــ طبقات الشافعية (مخطوط : دار الكتب المصرية رقم ٢٠٢١ تاريخ) .

هنداوى : محمد موسى (الدكتور) :

ــ المعجم فى اللغة الفارسية (مكتبة مطبعة مصر) .

ياقوت : ابن عبد الله الحموى :

ــ معجم الأدباء (نشر الدكتور محمد فريد رفاعى) .

اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر :

ــ تاريخ اليعقوبى (مطبعة العزى ــ النجف ١٣٥٨ هـ) .

اليونينى : موسى بن محمد بن أحمد :

ــ ذيل مرآة الزمان (طبعة الهند : ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٤ م).


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	علي ادهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكي نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ...	د . علي عبد الواحد وافي
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابياري
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفني
٨ ـ عبد القاهر الجرجاني ...	د . أحمد بدوي
٩ ـ عبد الله النديم	د . علي الحديدي
١٠ ـ عبد الملك بن مروان ...	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	امين الخولي
١٢ ـ القلقشندي	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبري	د . أحمد محمد الحوفي
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمي
١٦ ـ المختار الثقفي	د . علي حسني الخربوطلي

اسم الكتاب	المؤلف
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الاصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا احمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم امين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ ابو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ احمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار

اسم الكتاب	المؤلف
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صـــلاح الدين الايوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبــد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القــيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمــد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهـــدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصـــوه الغورى ...	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الاندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمــد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المـــأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقـــــرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الافغـــانى	عبد الرحمن الرافعى

اسم الكتاب	المؤلف
٦٢ ـ الجاحظ	د . أحمد كمال زكي
٦٣ ـ ابن ماجـــد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمـد توفيق البكري	د . ماهر حسن فهمي
٦٥ ـ محمود سامي البارودي	د . علي محمد الحديدي
٦٦ ـ ابن زيدون	علي عبد العظيم
٦٧ ـ عمـر مـكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوي
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوي
٦٩ ـ أبو الحسن الشـاذلي	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ علي مبـارك	د . حسين فوزي النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشـاذلي	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفـاطمي	د . علي حسني الخربوطلي
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشي	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ـ يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ ـ صقر قريش	عباده كحيلة
٧٧ ـ البـيروني	د . محمد جمال الفندي د . امام ابراهيم أحمد
٧٨ ـ عبد الكريم الخطابي	د . جلال يحيى
٧٩ ـ أسـامة بن منقذ	د . أحمد كمال زكي
٨٠ ـ محيي الدين بن العربي	عبد الحفيظ فرغلي
٨١ ـ مصطفى صادق الرافعي ...	د . كمال نشأت
٨٢ ـ أبو جعفر المنصور	علي أدهم
٨٣ ـ ابن الأثير الجـزري	د . عبد القادر أحمد طليمات